# راحيل

رواية



محمد حسين بهنس


مكتبة هبّار للكتب الإلكترونية
Habbar library for e-books







# راحيـــــل

"مناجاة سالم"

محمد حسين بهنس

عنوان الكتاب : راحيل
المؤلف : محمد حسين بهنس
الناشر : مكتبة الشريف الأكاديمية
الطبعة الأولى : ٢٠٠١ م


الغلاف الأمامي كولاج من تصميم المؤلف
الغلاف الخلفي بعدسة : طارق باظابي
جمع وإخراج الكتاب : عاطف خيري

## اهداء

إلى روح أخي ،

زهير هاشم



# في الزووم

كانت هاجرة حلوب ، تحلب العرق . تحلب الذاكرة بمواقيت. كنت كمن كان مهيأ لاستقبال أمر عظيم ، كانت حركة الشارع امامي من خلال زجاج الباب ترجعني برهة لحركة النمل قبل حلول الشتاء ، وكانت الشمس تحدق بقسوة في المطارح كمن تبحث عن شئ عزيز . كان ذلك اليوم الغامض والذي غير مسار حياتي كلية ، هو بمثابة حياة أخرى ابتدأت فيها من جديد ولكن ... كمن يبدأ شابا في العشرين فما فوق وليس كمن يبدأ منذ الولادة عند العشرين.

كنت أجلس داخل الاستديو على مقعد خشبي متنسما رطوبة أجهزة التكييف ، وبالية وربما بضجر طفيف أقيد الوارد والمنصرف لصاحب المحل الذي لا يربطه بفن التصوير رابط . وفي ذلك اليوم الذي أصاب رأسي بالدوار ، قعدت أمامي راحيل لأول مرة لالتقاط أعجب بورتريه في الدنيا .

لقد حدث هذا منذ سنين خلت . كانت تتحلى وقتها بصفيقات ذهبية ناعمـــة تتأرجح من شحمتي أذنيها . أقول صفيقات ذهبية معمولـــة باتقـــان جعلـــني ، لاتعرف ، اسمع بوضوح عزيف الرياح وسكون المودة ووشوشة الزيبق في الخيال.
وكانت تلبس فستانا مشجرا بالسماوي الباهت ، وعندما فتحت راحيل البـــاب ووقفت أمامي وقفة ما بعدها عيد ، كانت هنالك ٤٢ قطيرة عرق تقريبا تجلـــس على عرش جبينها الوضي واربع قطيرات أصغر على أرنبة أنفها .
والذي أعجبني حقا في قطيرات العرق تلك ، هو أنها كانت تتلألأ عاكسة رونـق النهار غير آبهة بزمجرة أجهزة التكييف التي تتوعدها بين الفينة والأخرى بالتبخير .
وكانت تنتعل حذاء ، بدا لي مثل أحذية قدماء الأغريق بسيور جلدية رقيقة مـــن جلد الاصلة لا تعرف تتشابك حتى أعلى عظم شيطانها وكان على ظهر قدميـــها اللينتين غبار شفاف ، والذي اعجبني في هذه النقطة أنني عندما أطرقت لم تستـــح هي من الغبار و لم تمسحه ، بالعكس قد بدالي أنها كانت تزهو بـــه وتتمـــنى ان يكون اكثر في المرة القادمة ، الامر الذي قـــادني الى ادراك اسـلوبها في الحيـــاة .توهجت قبل دخولها بقليل ، أول ما توجهت رائحة هي في ما وراء حواســـي مزيج للربيع والصيف سبقتها الرائحة كأنها دليل ، نار سعيدة تدخل الاســـتديو تاركة الاخشاب الطاعمة والأوراق والمحاليل الكيمائية ، والاجهزة ، تترك كـــل ذلك لتشب في كياني .

أقول حينما هرني وجه راحيل ، لوهلة افاق الزمان بعد جدب وأختلطت النـــار والريح والتراب والماء في مزاج ضاري ، ولا تعرف ، المريض رجع الى صحتــــه والسكران من سكره صحا ، والمجنون من جنونه ثاب اليه عقله والنائم من نومـــه استيقظ والغافل من غفلته انتبه ، الاي ، لم أكن ادري انني أي شئ ، كنــــت في شك بحمل كما لو كنت أتأمل في جنينة يوسفي من خلال باب ارتطـــم فجـــأة وانسد في وجهي لالتفت سريعا ، فأجد الصوت المرتد لنفس الارتطام فتح بابـــا من ورائي يطل علي جنينة يوسفي .وعندما ابتسمت يا قمم الجبـــال الشـــاهقة حيث يمكن للمرء أن يزاحم الغيوم ،وهي تقول بصوت فحيح أســـتعمر الجـــو كالهاجس :

"محلك سر "

فأجبت بأدب جم :

" أنت برضو محلك سر "

ضحكت وهي تقوس حاجبيها الذين يشمخان كأنهما حاجبان علي باب خليفــة من الخلفاء أو ملك من الملوك ، لكنــــي كشـــرت وجـــهي فـــاتخذت وضعـــا صارما.شئ غريب ، انني كنت أعاملها في تلك المرة بقساوة ظاهرية وحزم مـــع أن قلبي كان بحيرة من الصمغ .

ليت شعري ، وهل يدري الانسان شيئا ؟ أقول حينما جلست راحيل هينمـــت الاشياء بمالا أدري ، وسمعت هاتفا يقول : " تبارك الله " أخبرتها أن تســبقني الى غرفة التصوير ثم لحقت بها بعد مدة لم تكن بالطويلة ، و لم أجدها كما توقعـــت وكما كنت أجد باقي الخلق في مثل ذلك الموقف . قلت لم اجدها تتــــذوق في المرآة ، كانت واثقة من أن هذا الشكل يقنعها ويقنع أي جن .

اضأت أنا شمسية الأضاءة التي من قماش الساتان الاسود ، واخترت لها خلفية هـا اعتام خفيف ، لا تعرف مثل التكتم مع افتضاح النظرة . هنا حــدث لي مـا لم ولن يتكرر على الاطلاق فاناء ما كنت ازيح الستائر الملونة من ورائها : تتبعـني باصرار رائحة زنبقة تتفتح ابدا .

وأنا أعود الي الكاميرا لاضبط حلقات الزووم انزلق بصري علي صدرها فرأيـــت الارانب تتعارك في الظلال .

وانا اصلح من مسند الكاميرا ازحزح الحامل للوسط قليلا : هبت رياح طفوليـــة شخصية والتفت حول جسمها بمثابة حرز منيع ، وأنا قابع بعيني التي اغمضـــت لها الاخري من خلال مربع العدسة لأضغط مفتاح الفلاش : تفجر من صخــور الصبر معناي وأملي الوحيد في الخلاص .

بعدها ، كنت قد اخبرتها ان تعالي للاستلام بعد ثلاثة أيام ، ويعلــم الله كــدت اقول لها تعالي للاستلام دائما في كل لحظة .

وكان من طبيعة العمل الانتظار حتى اكتمال الست وثلاثون لقطـة ثم تحميـض الفلم بعد ذلك ولكنني شرعت في الحال منذ أن غادرتني في التحميض وآثرت أن ادفع الخسائر من جيبي . لم أكن اقوي علي الانتظار ، كانت تريـد الكـروت ملونة ولكنني استاذنتها أن تكون أبيض واسود قبل التصوير ، ولما رضخت بقليل من الاستياء اوضحت لها ان هذه رؤيتي ، فرددت بصوت مازح ولكنه كان بـالغ الاثر في تحريك الالهام : اذن نشوف الثلاثة يوم قريبة .

راحيل البتة لا تكذب ولكني اجزم أن الثلاثة أيام كانت بعيدة بعد الفردوس عـن أبي لهب . ثم أنني لاحظت شيئا آخر في تلك المرة فعندما كنت اهماً وعيني علـى العدسة لضغط مفتاح الضوء توقفت طويلا كالمسمر كالصنم حـتى بـدت في عينيها نظرة تساؤل ، وهنا لما تجسدت تلك النظرة جليا دست علـى الفـلاش لتنطبع بعد ذلك على ورق البوستال أعجب صورة لبورتريه في الدنيا .

حينما كنت في المعمل الضيق وعلى النور البنفسجي الباهت . أه يـا وحشـة العسل في جرة الفخار ! أقول كنت بحب وهوي لاذع أكثر من مهارة وخـبرة أمزج بين المحاليل وأغمس الورق الحساس في التركيبة الكيمائية كـان الكـرت أبيض واسود لكنني بأضافة بعض الخدع المهنية جعلت لون الصورة برمته يميل الى الصحرواي الداكن فكان علي ذلك الوجه الفذ الذي يجسـد ملمـح المجـد في ذاكرتي تمر بسلام عاصفة ترابية من نوع السفاية في مغرب حمري هامس .

وحينما جفت الصور وعرضتها لنور الطبيعة طلعت الاشياء في العـــراء الطلـــق وهلت اساريري وكأني منساب في سيل موسيقي اسمعها واراها وانا قشة لامـو اء ، كان وجهها يجسد عبيرا قويا يفلت من اصابع التحديد ولكنني مت علي ذلـــك : صرامة تتأجج في خشب الصندل الاحمر مع اندفاع عاطفي واســـع المرامـــي والابعاد . كانت ثلاثة ايام كأنها دورة تدريبية في مهارات فن الصمت ، لا أكـاد ادرك فيم انقضت رائعة الضحى بالنهارات بين العبد لله والزبائن وكأن الـــذي يقابل والذي يصور ، والذي يتكلم مني عند الخوجة باقتضاب هـــادئ هـــو الغياب الفظيع .

وحينما كنت اعود للبيت بيت العزابة بعد الثالثة ظهرا كنت علي غير عـادتي لا أحادث صديقي الرقيب نصر الدين وعلي العرجي كانا في البدء شبه قلقين يخـامر هما شك أن هناك حادث حدث ، ولكنني في اليوم الثاني بعد أن ملأت أبريـــق البلاستيك الازرق بالماء وعيني شاخصتين بنعاس غريب اسير به علي مهل كـأني نائم ، ثم دخلت الغرفة التي بها صديقي ، وانتبهت فجأة أن هـــذا ليـــس هـــو المستراح همس علي العرجي لنصر الدين وكان يقصد أن يسمعني جملته القائلـــة : سيدنا آدم نزل من الجنة بي الاعراض دي .

كنت خاويا ليس بمعنى الخواء الصراح ، ولكن خاو كالممتلئ أو شئ من هـــذا ، لا استطيع التحديد ، كأني كنت آنئذ لا استطيع التعبير عن شئ كنت مغلـــولا

في الصميم ، وسجينا في الانتظار لحلول اليـوم الثـالث ، وفي اليـوم الثـالث استيقظت مبكرا جدا وكان العربجي هو اول من من يستيقظ ثم الرقيب وهـذا الاخير لو لم يكن ملزما بالتمامات لما استيقظ قبلي لكنني استيقظت قبلهم اراقب نجمة الصباح , مقر فصا علي العنقريب يتناهى الى مسامعي اسـتحار الديـوك وأمام شجرة الليمون التي كنت وما زلت اعتقد جازما بأنها تودني ودا هو مـن تلقاء طبيعتها .

كنت اشعر بحالة غريبة ، بالحلم الذي رأيته قبل هينهة من ذلك الوقت ، وأثـاره لما تزل بعد ، كأنه ما زال مستمرا ، كنت قد رأيت نفسي ترقد بمنتصف طاولـة تشبه طاولة التشريح الطبية ، في منتصف المسجد المجاور ، والمسجد كان حديـث البناء لما توضع به سجاجيد الصلاة بعد ، وحولي يقف قوم كالاطباء ولكنـهم لم يكونوا بأطباء ابدا ، وانا طريح يستعر اللهب ببطء في كافة جسدي ، ما خـلا دماغي وكنت اشبه بباذنجانة علي الجمر تحترق بسكون ، كنت لست بميـت ، ولكنني ايضا لست بحي .

استيقظ العربجي بصيحته الشهيرة التي يفتتح بها يومه ، بصوته الاجش العميـق " صحينا عليك يا الله نحمدك ونكون من عبادك الشاكرين " وقام بنشاط مسـتلا مسواك الار اك من تحت مخدته ، ولما رآني صاح : " أه ! "

ثم دعك عينيه طفيفا ، واظنه اراد أن يقول شيئا ولكنه فضل ارجاؤه ، أظن .

لما استاك وتوضأ للصلاة ، ومن قبل أن يرتج الباب وراءه ، وهـــو في طريقـــه للمسجد ، التفت الي قائلا :

" العشق والجيش واحد يا صاحبي : نوم ما في "

وفي ذلك الصباح غير العادي ، كنت طفلا تند عنه أمور الكبار ، بماذا شـــعرت ياترى حينما أطلت راحيل فتبينت سُراي البهيم في وضح وجهـــها ؟ وجهـــها قيلولة البسمة المهملة . لست أعرف .

أقول " راحيل " فأحس باللذة المعنوية ، وكما قال المتنبي " أساميا لم تزده معرفـة وإنما لذة ذكرناها " لسبب ما ، عندما دفعت الباب تلك البنت التي تشبه النفـس ، واطلت مصدرة ايماءة برأسها نفحتني بدفء الطوية ، وهي ممشطة رأسها مثـل جريد النخل المخصوف احتاحتني موجة من الطرب الخفيف شعرت اني .. حسنا ، هي لم تكن بالضبط كذلك ، لكنها نوبة من " العوارة " لقد شعرت وقتـها أني نملة تتزعزع في هبوب شديد ، ثم احسست لبرهة اخرى اني سلطان " الهبالـــة " دون منازع و لم يمهلني الصمت حتى تقترب مني أكثر ، فصحت أنا مطـــرق في اجزاء كاميرا نيكون بها عطل :" الدورة دي .. راسك عامل زي القفة "

ضحكت وأومأت مثل وردة اثقلها الطل وهي تقول :

" السلام عليكم "

وضعت هيكل الكاميرا المفككة علي الزجاج البيرسول حتي كاد ان ينشدخ ، ثم تمتمت وانا احاول محو البلاوي التي تجمعت في صفحة وجهي : " ورحمة الله وبركاته " لست اعرف ما الذي تحرك بالضبط في جسمها عرين الطلاوة ذاك وهو ساكن في شريعة الامر ، كأن ترفع اناملها الرقيقة مثلا فينهار جرف من نفاد الصبر ، اخرجت راحيل برشاقة عالية وبحيوية تفوق التصور وصل الاستلام ، تصنعت أنا قرأته ثم رفعت ناظري متفرسا وجهها وياللعجب! كان قد اصبح مختلفا عن كرت البوستال . ليس مختلفا بمعني انه وجه شخص اخر ولكن هناك شئ ما قد ولي ولن يعود ، تماما كما تقطع النهر سباحة ، فأن المياه التي قطعتها لن تعود ، او لا تعرف مثل ان تلاقي امرء في الثلاثين من عمره ثم تقابله غدا لتجده في الثلاثين ويوم . قالت وقد اصدرت اظافرها التي لم يكن بها ثمة طلاء ، عدة نقرات على زجاج المنضدة :

" الصور ان شاء جاهزة "

اجبت بنبرة رسمية نوعا ما "نعم جاهزة" وفتحت الدرج المستطيل مستخرجا منه دفترا به ظرف اصفر عريض به صور الزبائن ، انتقيت منه اربعة كروت وكنت خفية قد طبعت خامسا واحتفظت به ، لا تعرف ، لأسباب فنية . وعندما فرشت امام ناظريها الكروت كلاعب كتشينة محترف ندت عنها شويهقة مكتومة وفغرت فاها كأنما تنظر الي شخص الحلم وقد تجسد . حملت الصورة

وتمعنت فيها مليا وهي همس مثل ليل طويل " يا الله .. أنت ما زول .. أنـــت فنان "

ألست أنا خريج ثانوي عالي ؟ والله لو كانت درجة الشرف أنثى لكانت خـــادم راحيل . قلت لها بصوت خافت :

" ستة سنه في الشغلة دي ما صدقت الا بيك "

قالت وقد تغيرت نبرة صوها ، ولكن ليس الى كل المناغاة :

" أنا سعيدة انو عرفتك "

ومنذ تلكم اللحظة الخالدة ، احاطت راحيل بي كاحاطـــة القميـــص بـــالبدن ، سالتني ان كان يوجد ماء بارد لأنها عطشى ذهبت بتريث الي الحفاظـــة اللبنيـــة واحضرت لها كوب نيكل مبتهج بالندى على صفحاته الدائرية ، شربت بـــترو كأنها تتذوق سر الماء .

كانت تشرب كنعاس آسر يتسرب الى الرأس ، تذكرت علي العربجي وهـــو يكرع كوب الماء من الزير فكأنه ثور يقح . كانت لا تود الخروج كأن الهـــواء ثقل عليها ، وكنت أنا لا أود سوى اطالة الحياة قلت لها وانا ارمقها بنظرة معينـة : " الصور دي تذكارية ولا ... جامعة أو شغل ؟ "

تغيرت ملا مح وجهها قليلا ثم قالت بنبرة بيضاء :" تذكارية "

صمتت قليلا وكنت أنا في غاية التوتر ، لست أعرف ، ولكن خافقي كانا مثـل قرع النوبة في أوج ليلية كاربة.

كنت أريد أن افعل أي شئ ، ما هو , لست اعرف . أردفت راحيل : " يعـني ..ثلاثة تذكارية ..والرابعة لعريس في السعودية عشان يشوفني " وكأنها اشـركتني في كل شئ ، كأنها اشركتني عن قصد ، صحت بها : " كيف ؟ " خفضت مـن صوتي قليلا ، ثم وجدت روحي تتمتم :

" يشوفك ؟ "

لفسحة من الوقت ، رأيت شيئا مثل التعصب على جبينها الانور وومضـت في عينيها لمعة عزم ، لكنها اخفتها سريعا وهي تردد ، وكانت نبرة صوتها في هـذه المرة ساخنة مباشرة وتقصدني أنا شخصيا ، مما جعلني أشعر بسعادة غامرة لأنهـا كسرت الحاجز : " عرس.. ما سمعت بي عرس قبل كدة ! "

قلت لها ونفسي تزداد حدة : " في زول متعلم ومثقف زيـك في نهايـة القـرن العشرين يتزوج بالشكل دا ؟ "

قالت وقد ترقرت عيناها : " في حاجة اسمها الظروف يا استاذ ..انت ما عـارف حاجة "

بهتت ، وتراكمت في وجهها سحابة حنق جميل ، كان التعبير الذي ارتسم عليـه بلاغي الطابع ، صاحت وهي ترمقني شذرا :" انت الظاهر اتعودت علي خـللص

" ثم استدارت الي الخلف بحركة عسكرية مباغتة وهي تقـول : " الحـق علـي ..شكرا ليك علي كل حال " ومشت نحو الباب حوالي ثلاث خطوات من قبـل أن يتحرك المستقبل من مكانه بفعل صيحتي التي اطلقتها وانا في قمة الاشـياء : " راحيل !! "

التفتت هلع ورآتني ورأيت كذلك نفسي ، لأني لم اشعر إلا وانا مـاثلا امامـها ومعترضا طريقها ، وانفاسي تشيل وتحط في تواتر عجيب ، ممسكا بسكين علـي العرنجي التي يدرعها في ذراعه ، وكان قد نسيها بعد ان افطـر معـي بسـلطة خضروات ، ولكنني لم أكن ابدا الوح بالسكين في وجهها شأن التهديد ، وإنمـا كنت ممسكا بها كأني حامل سيف في كركون شرف ، أمام وجهي اقلبها وانـا اهدج بصورة جازمة : " قسما بدين الله يا راحيل . قسما بدين الله . أنا معـاك لحدي يوم القيامة . لو ضل هبشك اهدم حيطتو وابني مكانها حيطة جديدة . مـا عرفتك قبل الكم يوم ديل وما حأعرف بعد دا الا انتي ، انا طالب قلبك ودايـر اعرسك ،انشف البحر بي وراك واكورك : ر يحة راحيل . صحيح أنـا فقـران وحياتي فقر . لكن عاشقك وراجلك . والفقير لمن يعشق ويريد وضوعو يتحسن تلقائيا اذا كان عقيدتو في الهدف راسخة . وكان هو صادق . وهسه أحمد الله ، وضعي مش بطال ، أوضة وزير ودولاب صغير وعنقريب وملاية جديدة ومـوت عديل كدا "

كانت تنظر الي في بادئ الامر بهلع بجرد ، ثم ما لبثت نظرتها ان تحولت الي دهشة مع النذر اليسير من الخوف ، ثم الي شئ من العجب ، كانت كالوان الطيف تستيقظ الواحدة تلو الاخرى ، ثم ضحكت ، ضحكت بصوت عال وواضح ، ضحكة معتوهة . لو كان هنالك شلال بضخامة نياجرا لأوقف هديره وشاركني حبي البسيط مثل .. أي شئ .

لا .. لا يا نفسي انني اعرف مرواغتك ، فلا تحاولي ، قلت لن أحاول المغامرة بوصف راحيل ، بعد أن قالت جملتها الاخيرة ، وهي تركض مثل مليون طفل نحو الباب . كنت اضحك بقلبي ، وابذل قصارى جهدي لكي لا اضحك بوجهي فيتسوف امري ، لا يا نفسي قلت لن اغامر بمحاولة التعبير عن ذلك . ولكنها كانت اجمل بقليل من شمس الحياة وهي تصيح بي :

" يا بجنون .. أنت أكبر بجنون .. لكن ورحمة زكية أمي أنا حأعرسك " .

## خفقة فلاش

كان زواجا مرتجلا ، زواج علي البديهة لم تدم فترة خطبته أكثر من يومين ،لكنهما كان بشكل أو بآخر ستة أشهر في خلال ٤٨ ساعة كان المستحيل نفسه يكافح معنا لتحضيرات الزفاف ، وقفت أنا علي مفترق الطرق ثم تزوجتها . لم نكد نصدق انفسنا حينما امسينا في خلوة والله . راحيل كانت عجيبة كانت تضحك أم تبكي أم تسلو أم تتضرع لا تعرف .

همست لي وانا في تلك الليلة الخالدة كنت امسح خديها بابهامي محاولا لعدم هدر دموعها التي سحت علي الارض ، متذوقا لسعة الملح : " أنا ما مصدقة "

قلت لها وانا لا ادري ما ذا أقول :

" من الافضل في بعض المرات أنو الز ول اصلو ما يصدق "

لم تكن هذه الافكار قاصرة علينا نحن العرسان فقط ، ولكن الر قيب الذي حضر وشوقه الى اللكوندا في اليوم الرابع " لأسبوع العسل " فيما اسميناه لأنه

بعد اسبوع فقط كنا نزوال حياتنا كما كانت من قبل . قـــال لي و لم اشــعر بالحسد ولكنني شعرت انه يغبطني : " عرسان الغفلة .. والله لقيتوهـــا .. أنــا والكاشف دا نحاحي لينا سنين عشان نعمل ربع العملتهو انتو في يومين"

كذلكم علي العربجي اصر فيما اصر علي ان نتتزه بعربة الكارو أو " كوريـــلا علي الله " كما اسماها الرقيب مبينا ومعتقدا أن اثنين تزوجا بهذه السرعة لا بـــد بأن يتتزها في ايام العسل بمركبة بطيئة طردا للعين وقال لنا في نهاية اليـــوم بعـــد عودتنا : " سبحان الله ..الكون دا منظم .. الفوضي والكشامشا ديل ويـــن ؟ "

في خلال ٤٨ ساعة تضافر الجميع ، تضافرت المواعيد المسبقة ، مـــع الصـــدف الكامنة كمون النار في الشجر الاخضر والتحم الموجود وغير الموجود في بـــذل مطلق .

باع العربجي ثلاثة اطارات الاسبير ، ودفع نصف المبلغ الذي يعطيه كـــل نهايـــة اسبوع لاسرته في الكتياب وكان على الرقيب نصر الدين أن يتحصل على سلفية سنة مقدما من وحدته بقوات الشرطة ويستدين مبالغ لا بأس بها ضف الي ذلـــك أنه كاد في سبيل ذلك اليوم أن يسجن عسكريا ويفصل من الخدمة نهائيا ، لأنـــه وحفل الزفاف في أوجه ، وكان هو نجمه اللامع بلا منازع ، فقد حدث مـــا لم يكن في الحسبان ، قطع الحفل وانتهى مرج العالمين والليل لما يزل بعد طفلا يحبـــو كما قال هو في المايكروفون آنفا ، فجأة بكرسي جلبه من الاطـــراف المكتظـــة

بالوقوف والجلوس ولمبات النيون والمجهولين المتربصين من فرجات قطع الخيمة الواسعة ، جلبه بعد أن طرح منه عدوه اللدود الطفل تعبان المشاكس ابن الجيران ويخيل الي ان مفردة جيران هذه يمكن أن تفهم على انها اسم ايضا لأن ابوه ملاكم سابق في الجيش ذا كتفين يمكن أن تقوم عليهما قاعدة جوية ، بعدها وضع صاحبنا الكرسي بمكان غير لائق بالمرة ، وضعه بمنتصف الدارة والضجيج اللاهي لا يعطيك الدرب. واخرج من تحت قميصه طبنجة ولزر طليانية الصنع ، عسكرية الترخيص ، وأخذ يصيح :

" أب سالم أخوي "

ويطلق ثلاث طلقات باهمال في الجو ، فيتفرق الناس وتتصايح الصبيات وايضا النسوة الهلعات اللواتي احتضن اطفالهن كما تحضن الدجاجات بيضها ، وهن يستخدمن كل السواتر الممكنة تحت أرجل الكراسي .

إنفض الجميع فأصبح الرقيب نصر الدين لوحده علي الكرسي بمنتصف الخيمة ، والفنان الشاب قذف بالميكروفون كجسم غريب يقيده بالغناء قدام الموت ، تبعه عازف الاورغ الذي طبق آلته كما تطبق الجريدة ، وكنت أنا وراحيل على الكوشة نضحك ملء شدقينا ووقفت شوقه خطيبته على حيلها خابطة بكفها على صدرها وكان هو يزيد معدل الطلقات صائحا :

" أب سالم أخوي "

وعند نفاذ آخر ما تبقى من ذخيرة ، يبدو أنه كان مستكينا للغاية كأنه كان يعبر عن مشاعره بمزاج رائق ، لأنه كان مغمض العينين وهو يسمع الدوي الاخرس مخترقا سماء الحي . وفجأة فتح عينيه ، مبحلقا بذهول ، ليجد أمامه دورية كاملة من رجال الشرطة بكامل عتادها تشهر في وجهه بقنادقها السريعة الطلقات فشهق شهقة رامية وهو يرفع يديه عاليا بعد ان رمي مسدسه علي الارض واستوي واقفا ثم صاح :

" اب البواليس زملائي "

كان يتوجب علي ان ابيع كاميرتي الوحيدة ماركة مونوليتا الحديثة الصنع بحقيبتها الرصاصية والتي ارسلها لي اخي الاكبر من الخارج ، وكان علي ان اهزم جيشا من العراقل ، وأن اقنع المنطق نفسه ان هذا الزواج قدري الشخصي وفردوسي الحلال ، أذا كان علي أن اقاتل مجازيا اهلها وخاصة خالاتها الشرسات ، اربع نساء صعبات المراس ، عوانس ، شديدات اللهجة ، باديات الحذر مم ؟ لا تعرف . يتشابهن تشابه المرآة ، كنت اسميتهن الغولات فكانت رحول وهكذا ادلعها تضحك مرددة :

" والله ياهم "

توفيت والدتها التي يقال أن روحها حلت في راحيل لشدة العلاقة التي تربطهما ، كانت امرأة تدعى زكية رحمها الله توفيت بعد زوجها المهندس بسنة ونصف ،

فتخاطفت راحيل الغولات وربينها والحكمة لله ، انهن كن يحببنها لكن خطـأهن الوحيد انهن لم يتركن لها ادني مجال لكي تحبهن .

أسمعنني احلى اغاريد الشتائم والرمي بالجنون والتهديد بالبوليس ولميكن في تلـك العائلة برمتها رجل واحد ..شئ غريب .

استمرت المفاوضات والتي تحولت الى مزاد علني قرابة نصف اليوم ثم لجأت اخـيرا كبراهن التي علمتهن السحر أقول لجأت الى اسلوب آخر ولقد اثــر في بـالفعل ولكن نحو الايجاب قالت بهدوء متثعلب : " نحن يا ود احـوي دايريـن الخـير والصاح ، وانت طالب حق الله ، اها وزي شبه اتفقنا معاك ... لكن "

ثم آه من تلك الهمسة ، كان الشيطان بعد ذلك بستة اشهر حين اعاد ترديدهـا قاذفا بها في اذني ، كان يرتدي زي ملاك الرحمة . همسة من ثـلاث كلمـات أودت بستة وعشرين عاما ادراج الرياح مذ ذاك رايتني اصيح بصلف علي الدليل معتدل مارش . صرت قائدا لجند الهواجس ، عليها اللعنة من همسة . ستة اشـهر من التفاعل التام بين الاشياء حينما تزوجت انتهت كل مشاكلي تقريبا ، ولكـن ابتدأت مشاكل من نوع جديد أفظعها علي الاطلاق هو الانزلاق بقشرة مـوزة الديون الكثيرة فصاحب اللبن يريد حقه وصاحب الدكان يريد ايضا حقه فجـأة تطلع حقوق عالمية تجعلك تشعر ليس بالامتنان ، ولكن بأنك كلب مربـوط الي حائط والناس يرجمونك ثم صاحب الجزارة ولا تعرف وسـت الشـوب تريـد

والنسوة دخلن في خته والمانيا تطالب وفرنسا قلقة وست العرقي تندد والامـــم المتحدة لا تعفي ديونها ، اصبح انا في رمشة عين مثل سائر الحكومات في البلد .
وذلك المشوار العجيب يبتدئ دائما خفيفا ، طفيفا لا تكاد تحس خطـــره مثـــل السم الناقع في البدن أول ما يسري وهو أنماط غالبا ما يبدأ بجمل مثل بكـــرة ان شاء الله ، لا اديني فرصة كم يوم كدا ، وفي مرحلة طفولته ، أمـــا في المراهقـــة فيمكنك أن تسمع وحيات اولادي ، و علي الطلاق بالثلاثة ، احلف ليك بي ايه ، جمل غنائية يمكن أن تلحن , ثم في فترة نضوج شبابه تقوي العين شيئا فشـــيئا ات اصلو حالقني ياأخ ؟ واذا قدرت ظروفي يا ود الشيخ دا حالي والله عـــارفو ، اعلي ما في خيلك اركبوا ، وفي مرحلة الكهولة يصبح القلب هلب ثقيل فتســمع قول ليهو ماف ، وعندو رطوبة ما معروف راقد وين . وقول ليهو مشي يشـــيل فاتحة ، ثم اخيرا : قول ليهو مات ، ولكن ارجو ان لا تظن بي الظنـــون انـــي قطعت كل تلك المراحل معاذ الله ، اذ انني يادوب والعين علي باردة ، وصلـــت في ستة أشهر فقط مرحلة : متين الكلام دا حصل يا زول ؟ .
كنت تلقائيا في فترة حياتي الاخيرة قد بدأت اعيش كما لو كنت وحدي " هـــذا قبل فترة انتقالي الي بيت العزابة " وانا بين افرادأسرتي ، واصبحت الالتزامـــات الاجتماعية ثقيلة علي قلبي بل احيانا وانا اسير بين زحام السوق العربي بـالخرطوم ، احس بأني صرت بجهر اكثر من كوني انسانا ، اراقب تعابير الوجوه ،اتفحـــص

احوال الناس النفسية أرمق باهتمام بالغ توافه لمحات الاشياء العابرة وتقاسيم المباني والمعامير ببعد يدب في اوصالي دائما كالخمر . كنت اجد نفسي دائما اردد اغنية : وبس سكر تملكني واعجب كيف بي سكر .
اسير جامدا بين الناس كأني صخرة ببرود يغلف تحاياي وايماءاتي واحيانا كثيرة أكره الناس .ترى من هو ذلك الشاعر العظيم الذي قال " ما اجمل الارض لولا الناس كلهمو " أي والله اكره الجميع ، واحس بحبي الوحيد ملحدا في قبر مجهول . وارجو أن لا يفهم من ذلك اني اشعر بالغربة . لا ابدا لا اشعر بأني غريب . لست بغريب أنا ابن البلد . آلف الأماكن والمخلوقات ولكنني اتمنى فناء اللئام منها . وهكذا لم أجن الا اللوم من الأهل والاقارب ، والنظرات المستهجنة من الجيران ، وعدم الاصدقاء . لا صديق لي . كان الالم العصبي يزحف في شراييني كالظلام فأصبحوا جميعهم بمرور الايام ، وبفعل العادة والروتين ، لا يلتفتون الي ، لا يغضبون مني ، لا يفرحون لي ، كنت حاضرا كالغائب ، اذا مرض ذاك اصبحت لا استطيع معاودته ، لا اعرف لماذا ، واذا توفي ذاك لا استطيع دفنه ، بل الادهى من ذلك ، مثلا اذا توفي " فلان " جاري أجد نفسي تردد لي : " لقد توفي فلان . فأمضي وأجيئ فتقول لي : لقد توفي فلاااان . توفي فلان . مات . لا شيئ . أقول لك توفي فلان الست حزين ؟ يا بن آدم
لست بحزين . لست حزينا البتة .

لقد كانوا ينكرونني ، بعضهم يتودد لي بالاقنعة . تلقائيا اخذت موقفي من بني البشر اجمعين : من دخل قلبي فهو آمن . كنت أؤمن حتما بأنه سوف يجئ يوم وانبغ نبوغ الشمس ، مافي ذلك شك ، فمن هو مثلي لا يتطلع أن يكون من خير البرية . كان شئ حاصل يحتم علي ان اظل مكبا علي التصوير ، وعند العودة للمنزل ادخل في خلوة الضجر والملل والفراغ المرير . لا احب القراءة والكتابة ، لكنني اقضي نصف يومي فيهما ، وكثيرا ما أصرخ : " لماذا افهم مثل هذه الاشياء "

" من الذي يقذف بقمامة الافكار والاسئلة في دماغي " كأني ازاول مهنة مجبرا أن ازوالها وانا احس بالعبودية تجاه المعرفة والقلم . خلاف ذلك كنت اذهب لمحاضرة الترويح بأبي روف كما اسميتها مراقبا طبيعة النيل الفريد . او احتس العرقي في مرزوق أو الحفر أو سقط لقط . لذلك لم أكن في حوجة لمناكفة افراد اسرتي ، لأني بعد ان اجتمعت بهم اجمعوا بتصميم هادئ مثل اللاشئ أن : " تعرس ما تعرس ما لينا ابدا دخل "

كما أن راحيل وقفت الي جانبي حيال اهلها بجرأة لم تطرق مخيلتي علي الاطلاق : " آآي سالم آخر راجل في الدنيا ، وكان ما عرستو بكرة دي عظمسا بالله العظيم انتحر "

كان كل شئ في أقصاه : الحب ، الاعصاب ، الأمل . وكان كل شئ بالنسبة الي راحيل قريبا : السعادة ، الموت ، نجوم السماء .

كان زواجا مفاجئا مثل خفقة فلاش . زواج اقرب الي الوفاة . لم يحضر احد من اهلها . لم يحضر احد من اهلي . شهد شاهد من نواة كيانها . شهد شاهد من نواة كياني ، وكان المأذون الباطني شيخ الحب الوقور ، ثم أتى بعده شيخ لشريعة الأمر ، كان وكيلها إمام المسجد المجاور ، وكان وكيلي علي العربجي ، وكان الشهود الفرح المشهود .

ولكن للحياة شد وجذب يدق عن الافهام ، فقد كانت الخيمة الكبيرة المنصوبة امام بيتنا بيت العزابة كأنها مغنطيس الناس اجمعين . اصدقاء وغير اصدقاء . زملاء من لدني والرقيب العربجي . صديقات وجارات من لدن راحيل وشوقه . معارف مبهمة لا تكاد تعرف اصلها من فصلها ، بائع ورنيش ، فتيات متجولات بأطباق حلوى ، وناس الحي الذي نقطن فيه , لا تعرف ، متسكعون . كانت شوقه الشابة اللطيفة الرهيفة خطيبة الرقيب نصر الدين والتي تعمل ممرضة بمستشفي ام درمان هي وزيرة راحيل ، وكان نصر الدين وزيري الذي سجل بصمته الخالدة علي يوم زواجي . كان الرقيب متقدا بالحماس والنشاط كأن الزواج زواجه هو . وكان العربجي لا يني بعربة الكارو طيلة اليوم يجلب ذلك من كذا و هذا من كيت .

وكنت أنا متعبا واعاني من ارتفاع طفيف في درجة الحرارة جراء عـــدم النـــوم تقريبا منذ ان قابلت راحيل وكذلكم هي .

وعند دخول البوكس التويوتا موديل٧٨ الذي يقوده جارنا موســـى التـــاجر ، رواق الخيمة المفروش بالرمل المرشوش ، انطلقت الزغاريد والهتافات الجانبية مـــن كل حدب وصوب ، كنت البس بدلة وجيهة استأجرتها من أحد المحامين القـــدام الذين يبحثون عن ثمن نصف العرقي بكل مواهبهم .

كانت راحيل .. راحيل العروس .. رغم أنف الظروف والجو .. كانت مجلـــوة كضباب الحسر عن ورقة خضراء يانعة .. من أنفها الاشم ينبعث قـــوس قـــزح فتخترقه شلة من طيور البجع .. ترتدي الابيض الناصع .. كانت راحيل بـــاكو رة ياسمين يتنهد طوال الوقت بمناسبة ودون مناسبة.

وعند جلوسنا علي الكوشة العالية المنمنة بالرقراق الذهـــبي وكراســـي قصـــب الخيزران واللمبات الصغيرة التي تغمز ، كنا نختلس النظرات الي بعضنا البعـــض ، ضاغطين علي الحزن حتى يئن ملتصقا بحائط المجهول ، ومطلقي سراح البشاشـــة بعفو خاطر ، ولكنه اشبه بالقصد .

كان الرقيب وعلي العربجي وشوقه وجارنا موسى التاجر ، كأنهم ابناء ابي الذيـــن يغضبون لي وينهضون معي قائمين بأمري وعندما اختلطت الامور لم اعد اعـــرف

من اين جاء ذلك ومن الذي دفع ثمن ذاك . فقط كانت هناك مقومات حفل كامل ماديا ومعنويا .

استهل الحفل بكلمات اشبه بالخطب عن الاخوة والعيش والملح ولا تعرف العمو من بعض المعتوهين.

ثم بعض المحاولات الشعرية من الرقيب نصر الدين الذي تفتقت قريحته في ذلك اليوم واحس الالهام وهذا الاخير عندما لم يتبق من الامر غير بهجة الامسية بدل ملابسه المتسخة جراء العمل وارتدى ملابس نظيفة مكوية ، مكترعا زجاجة من عرق التمر كان يخبئها منذ منتصف النهار وعرج علينا مغازلا شوقه التي كانت تجاورنا في المجلس مغازلة رقيقة وسريعة وحلوة وملعوبة كما يقول هو ثم بارك لنا قائلا لي : " عرسك دا الظاهر بقى جمعية عمومية .. نطمبجو ليك الليلة خالص ." فعلا كان هو في غضون ثانيتين ممسكا بالمايكروفون وقال في معرض ما قلل : " سالم صلاح سالم . يا اااالله .. يا الله .. ذلك الاخ ذلك الصديق الذي كان معنا منذ شوية في سلك العزابة نتمنى له من جواهر السعادة وبنفسج الدنيا الواسعة حياة شاسعة ومليانة فل ، وواقفة لمبة .. حياة للطيش" وعندما نزل حصلت مشادة بينه وبين تعبان المشاكس والذي كان يلبس بدلة ضابط في جيش لا يعرف له نوع واحتمى بأبيه والذي اسميناه فيما سلف : الجيران ، الملاكم السابق في الجيش ، فاستأذن أباه الرقيب في أن يصعد تعبان

المشاكس علي المسرح ليلقي كلمة نيابة عن الاسرة وعندما فعل اخذ ينفسخ في المايك ويبصق متفتفا : " واحد خمسة تف تف تف سفن كولينوس تف آلــــو " حتي ضحك الجميع واشاروا اليه ان يبدأ فالمايك يعمل بصورة جيـــدة . كـــان صوت تعبان كأنه مؤثرات صوتية في فيلم عن الادمان لا تعرف ، يبعد ويقــترب ثم يأخذ طابعا هلاميا حتي تسمع صوت تنفسه اللاهث " مبروك ، مبروك المكــوة النضارة الفيديو الحجر الجلسرين السمك صابون فنيك بيض المطرة سبعة تمنيـــة اااااااا الكلية الغنماية الجدادة الحمراء واااااع "

وعندها اوقفه ابود . ليس بالمعني المحدد وانما خمشه من المسرح ولكن تعبان اخــذ يصرخ ويشد وصلة المايك واصر ان ينشد وفعلا كان قد انشد : بــلادي جنـــة الدنيا وروض ربيعها الاخضر . عقبه الرقيب نصر الدين الذي حــــث عــازف الاورغ علي الخفة في تركيب الجهاز ورفع ايقاع الجو قائلا: " مفاجـــأة الحفــل اليوم ..هو ان اول اغنية قبل ما يجئ الفنان الونان المفروض يجئ الحفـــل لفــترة وجيزة ، حيغني عمنا الفنان الخطير من كلمات سيد عبد العزيز بصوت ابوداؤود الطرير ويهدي الاغنية لكافة الاحبة خاصة قبيلة الزبيدية في الشـــرق ولاولاده في الكتياب وللحرب في جنوب البلاد العزيز .. عمنا اللذيذ .. يا أنة المجروح .. يــا الروح حياتك روح .. الحب فيك يا جميل . عمنا الجميل الواعد علي العرنجــي " فصفق الناس وهاجوا وماجوا وانطلقت صفافير صعاليك السينما الحادة وكـــان

عازف الاورغ قد اختبر آلته بنقرشات سباعية مؤثرة . فصعد اليه بكل اريحية وسرور علي العربجي ، بجلبابه الجديد ، ومشنق طاقيته كما يقولون ، مستأذنا اياه بكل لطف وامسك المايكروفون ببرتكول راقي كمن يمسك بكوب شاي وقبل ان يبتدر الاغنية قال بصوت اجش واسلوب وقور " آآ . إحم بسم الله الرحمن الرحيم اتمنى من العلي القدير حياة ميمونة وعيشة مامونة للعريس والعروس مع خالص الاماني بالرفاء والبنين المتعلمين المفلهمين " ثم غنى . والحق أطربنا ايما طرب . وقد كان صوته كما اسلفت غليظا ولكن احساسه وخامة روحه كانت ابا داوؤد الخالق الناطق . لم يكن صوته جميلا لكنه حيوي . وقبل انتهاء الاغنية نزلت انا من الكوشة وبشرت له وبشرت علي الناس واظن انه من العادة ان العريس حينما يطوف مبشرا علي المدعوين فكأنه طائرة رش مبيدات . كان يوما لن انساه ما حييت . لولا تلك الهمسة التي طرقت اذن السادس عشر من يونيو في ذلك الطقس الموزع بين الصيف والربيع ، في ليلة ليلاء وان كنت لم ارتفع ببصري نحو نجومها فلأن مباهجها كانت علي الارض .

صعد الفنان الشاب وابتدأ بأغنية سيرة عرض فيها علي العربجي بعصاه والتف حوله النسوة والبنات وهو يجمع الشبابيل كأنه يجمع ثروة قومية في طريقها نحو الزوال . وكان عند كل انقضاء فاصل غنائي يصعد الرقيب نصر الدين المسرح حتي اصبحت له شعبية واسعة في تلكم الليلة . فما ان يهم بالصعود حتي يتصايح

الناس بالصفافير اكثر من كل مرة ، وكان هو يزيد من معدل تراكيبه الشــــعرية الغريبة ، كأن يقول مثلا بأسلوب اذاعي رخيم : " منتهى الزيطة والزمبريطـــة .. حيث الاشياء تمام التمام احبتي اهدي اليكم في هذه السانحة كركون من الامـــاني المستحيلة وبقجة مقشطة بالود والترحاب وتموت تخلي من الفـــــرح " ثم يــترل مبتهجا ور اقصا معنا في منتصف الدائرة البشر ية . فجأة اذ كنت اراقص راحيل في اغنية سريعة الايقاع ، امسكت هي برأسها طفيفا واطل الارهاق العنيف مـــن جفونها ثم كزت اسنانها واصبحت تبتسم لي ابتسامات غير طبيعية ، امسكت هـا من رسغها النابض بحنو ، قائدا اياها حتى الكوشة وهناك سألتها : " مـــالك ؟ " رق وجهها واتخذ شحوبا . تمتمت بصوت خبئ ، واهن ، واخـــــذت عيناهـــا تغيمان بغشاوة امقتها كل المقت : أبدا .. أبدا ارهاق بسيط "
سمعت صهيلا ، لكنه كان صهيلا ليس كالصهيل.لكأنه ظل صهيل ، بعدها مـــر كالبرق ظل حصان جامح شاقا الدائرة والناس وتريا ، مخترقا كل الحواجز ومخلفـا وراءه ظل غبار .

# علي العربجي

ما أنسى لا أنسى يوم جاءنا علي العربجي في اللكوندة ونحن في يومنا الخامس من الزواج . كانت اللكوندة تطل علي شارع الموردة حيث أمكننا في أوقات الغروب أن نصعد الى كافتيريا سطحها لمشاهدة البحر وتحركات الطيور المختلفة أشكالها وألوانها على مياهه الهادئة ، حيث الصيادين على مراكبهم الشراعية يرمون بشباكهم هناك في منطقة مقرن النيلين حيث تتدافع الأسماك .

جاء بعربة الكارو اوقفها امام اللكوندا ، مع العربات في الموقف الخصوصي مما اثار حفيظة موظفي الاستقبال ولما هم بالدخول حاولوا منعه بطرق دبلوماسية لانه اتي بلباس العمل المتسخ من غبار الاسواق وسناج شوالات الفحم وعرق الحلال.صنع ما شاء له من الهرج والمرج ، وارجو ان لا تظن الظنون ان صاحبنا العربجي رجل اضحوكة ابدا فإن كان جميع الناس قد ضحكوا واعتذروا له في ذلك الموقف فلانه تخطي حواجزهم القبيحة بجمال عفويته .وحينما طلبونا

وجدناه جالسا في بهو اللكوندة وقد اكرمه رئيسهم بكوب ، شاي خالفا رجليه علي مقعد وثير وحوله مجموعة لا بأس بها من الزوار والعرسان الذين يرمقونه باهتمام وهو يشير باوصافه كأنه في مؤتمر صحفي قائلا بصوت اجش طبعا يمتلئ هيبة : " عليك أمان الله لازم افسحم بي عربيتي دي .. وبحصاني الهلكان دا ذاتو .. الحصان دا ما تشوفوا كدا كان حصان حضرمي من اليمن جد جد جد جدو كان راكبو سيدنا سليمان لمن جابو ليهو بلقيس ، أهو الناس تنبسط بي فسحة فريدة ما تتنسي ..علي فكرة أنا كامل الاستعداد أي عرسان دايرين فسخة علي الكارو والراس ما عندي أي مانع والدنيا فيها شنو غير العرس والطيب والباقيات الصالحات .. اهو الواحد بعد دا يفارق الغم وسوق الشمس والشوالات والبرسيم ." يومها تكشفت لي جوانب هي ليست بجديدة بقدر ما هي لم يتح لها الظرف المناسب لكي تتضح في شخصية علي العربجي ، جعلتني اغبطه في داخلي . لكم ذلك الكهل الذي يناهز الخامسة والاربعين ، لكم هو محب للحياة والناس والاشياء . لقد وهبه الله تلك العطية التي لا يمنحها الا لمن اجتبى من عباده وهي القدرة على العطاء للاخرين دون ان يشعروا بكلمة : خذ. كانت نزهة اسطورية . عربة كارو مفروشة بجوالات قمح تلمع ذؤاباتها مفروشة بعناية حتي لا يتسخ العرسان ، وحصان كميت ، مقرح في ظهره عجوز يبين عنه هيلكه العظمي لكنه كان جلدا\ا سريعا يعدو الخبب كمهر وعلي اطراف حدود عربته كتب

العربجي بخط شبه امي علي قطعة اطار داخلي مشرشرة ببوهيه بيضاء عبارة يـــا سابل الستر . كانت راحيل تلبس ثوب احمر هادئ . وعلي قدميها الشـــريفتين شبكات بديعة من الحناء المشجرة جعلت لون ساقيها يحترق علي خفيف غـــيرة من شدة سواد الحناء . وقد كانت شوقه علي مدار الاسبوع بعد ذلك تأتي وقت الغداء تسودها لها . وكنت انا البس بدلة سفاري كما يسمونها ابتعتها قبل ثلاث ساعات من الزواج . كان العربجي يهيج حصانه باطلاق صيحات مثـــل افـــلام الكاوبوي فيشد الحصان خطوه حتي نسمع له نخيرا ثم يلتفت الينا محادثا ايانـــا في امور خصوصية تضحكني وراحيل حتي تكاد هي ان تقع من الجانب الاخر مـــن العربة . كان مسار النزهة بشارع الاذاعة حتى شاطئ ابوروف . ذلك الشـــارع الذي يحمل اهم سمات ام درمان ، وقد اتخذنا رواحلنا في نفس المنطقة التي نباشـــر منها محاضرات الترويح وكان العربجي يعرف ذلك . نزلنا تحت الترتوار حيـــث يقبع صف من اشجار النيم واللبخ العتيقة الضخمة متجاوزين حجرة القيـــف ، وكان المكان رقعة خضراء زاهية من الحشائش الناعمة ، وكان البحــــر في اوان الانحسار . كان الوقت عصرا وعلي امتداد الشارع العـــامر بالاســـر والعوائـــل والصبيان يسبحون وشباب يلعبون الكشتينة وصيادين هواة ، كـــانت الطبيعـــة الفقيرة مثل حب نقي هنئنا بمناسبة الحياة استأذننا العربجي في الانصراف لمشـــوار في الرواكيب القريبة لصديقه الحداد بالقرب من المرسي الذي امكننا ان نـــرى

من بعيد مراكبه الراسية و هو شبه ترسانة يدوية للمراكب الجديدة التي امكننا ان نري هياكلها الخشبية المسنودة باوتاد غرست في الطمي الاسود كطموح قوي . اقول رفضنا بشدة في البدء ذهاب العربجي ولكنه اظن كان يود ترك العرسان لوحدهم والذي تم انه هرنا بتناقضه العجيب الذي ابداه لنا . قال ان صديقه الحداد له معه عمل عبارة عن توصينة لثلاث أبواب حديدية ضخمة جديدة وهو يجني من وراء هذا رزقا بدلا من الجلوس مع عرسان عديمي الفائدة ثم ختم بأنه سوف يحضر عقب المغرب ومضى . كان العربجي اكبرنا سنا واوسعنا تجربة واحسننا رضي . رجل محنك ما عاد يكترث سوي بالقليل دائم الاطلالة بوجه وضاح وثغر باسم ، علي خده الايمن وسم ناري جعل وجهه يزداد تميزا وله قصة سوف اسردها باوانها واظن لا داعي لان اقول واكرر انه اجش الصوت حاد الانف يحب المديح ولا يحب من الغناء سوي الفنان ابو داؤود . كان يمتلك جهاز تسجيل قديم لكنه جيد فشيء عادي ان تراه مستريحا آخر اليوم من العناء بغرفته وصوت ابو داؤود يصدح عاليا وكان يغطي المسجل بقماشة محيوكة بحيث تلبسه كتهمة صفراء ومزركشة اشبه بالخرتاية التي كنا نذهب بها الي المدرسة في اباجد العمر وكان يقول وهو يتهكم بنفسه علي ذلك الامر " المسجل دا زي شطور البهيمة " كما انه نال احترام وود اهل الحي كافة وعاشرهم حقيقة لاني والرقيب كنا قليلي التواجد في الشارع ، كنا في اعمالنا

وخلاف ذلك سواء ان انجزنا مهام عزابية الطابع لاعداد حلة عشاء او تصليح شئ يدويا او زرع نبات جديد فكان بيت العزابة كأنه مشتل . وبالأمسيات ان لم يكن هنالك شئ كنا نجلب عرق التمر ونشرب القليل والعربجي ينادمنا بطريقته الخاصة ويكون درة القعدة لكنه بتاتا لا يحتسي الخمر كان يقول " انتو تشربوا ونحن نسكر ". كانت غرفتي فوضوية الطابع من كتب واوراق وكراسات ومجلات اجنبية وعربية وكتلوجات تصوير واشياء اخري كان العربجي يحسن القراءة والكتابة لكنه يكتفي فقط بالفرجة علي الصور الاجنبية خاصة وكان يردد " عالم عايشة .. ديل يا ابوي بخشوا النار بي حقهم خواجات اكلوا وشربوا وسمعوا وشافوا وزعطوا ومعطوا لكن السودانيين هالا لالا آآآآآه .. خلي بالك يخشوا النار سب دين جرائم بي قرش ونص"ولكن الرقيب نصر الدين شيئا فشيئا اخذت تظهر عليه اعراض جرثومة المطالعة ، فكان يقرأ ما تيسر ويناقشني ويتافكر معي في هذا اوذاك . لكن كتابا واحدا كان قد اثر فيه واخذ يردد منه مقاطعا بعينها وهو " لحظات باقية " لادريس جماع ينشد لك باحساس هادر وهو في طريقه نحو عمل شئ " ثم ضاع الامس منا وانطوت في القلب حسرة " كنا نجلس كاخوة حقيقين ونضحك بسرور حقيقي وكانت معظم مشاداتنا ودية اغلبها بين الرقيب والعربجي ، وكانت سريعة الزوال ولكن لابد من حدوثها بعد ذلك يختتم العربجي الجلسة باغنية بعدها يدخل في تنهيدة طويلة

قائلا : ابو داوؤد صلعة والنكتة عليهو ضفائرا واصاة الارض " وكــــان دائـــم الصلاة مع الجماعة في المساجد علي النقيض مني والرقيب ، اذ كنا لا نصلـــي الا في النوائب وحوجة النفس القاهرة . كان العربجي رث الثياب بالي العمامة قصير السروال حتي منتصف الساق بارجله النحيلة المتعصبة واقدامه التي شققها المـــاء ودبجت عليها اوضاع العبادة اختاما خشنة وداكنة . كنت احبه واكبره لدرجـــة ولكنه رفض ابدا تصويره وهو بملابس العمل علي الكار و قائلا : خلق الله كلـو سمح الا انا اعفيني اذا بليتم فاستتروا . " كان منظره بالعراقي ونظرة الجذ الـــتي يمكن ان تند عنها ابتسامة تحت أي لحظة من اللحظات والوجه الفاحم الســـمرة القاسي الملح مع عرقين نافرين في الجبين منظرا يخبرني ان علي رجل خلق للكـدح النقاء . كنت اري فيه خلق الانبياء وسمت الصحابة وحلاوة روح الزاهد اضـــف الي ذلك لسان العربجية الواصل . تزوج مرتين ويعيش مع عزابة امـــره عجيـــب بعض الشئ ، كان في السابق كثير التجوال في انحاء البلاد عرف مـــهنا عديـــدة كما عرف التجوال دون مهنة ، كان اقرب الناس الى عيشة الدروايش ولكنـــه لم يكن درويشا البتة . كان يردد " انا شغال في شـــركة مديرهـــا الله العظيـــم ". زوجته الاولى كانت صبية وهي الان امرأة ناضحة له منها ثلاثة ابنـــاء وبنـــت يذهب اليهم كل خميس وجمعة في محلة عالية مبينة بالطين الابيض تسمي الحرة في قرية الكتياب بالقرب من المحمية كان يقول " الدنيا احوال بعد و فترة حيجيـــي

الاذن وامشي اقضي معاهم الفضل لي من الزايلة " اما عن زوجته الثانية فهي سبب قعاده معنا وسبب عمله الحالي وربما ايضا ، لا تعرف ، سبب عزوفه عن الاولى في ذلك الزمن ، كانت فتاة باهرة حسناء من قبيلة الزبيدية او الرشايدة المشهورين بالتهريب في الشرق ومشهورين الهم لا يزوجون بناقم لحد خارج القبيلة مهما استدعي الامر , رأى صاحبنا العربجي ذات شتاء الفتاة التي نحن بصدد قصتها حاليا قبل خمس سنوات بضواحي طوكر علي ظهر لوري وكان الركاب عابري درب و لم يكن اللوري يتبعه لمسألة المواصلات لكن ركابه كانوا يدفعون قيمة بعينها للسائق لقاء توصيلهم مناطقهم القريبة المتناثرة علي طول الطريق . كانت تجلس مع امرأتين مسدولات الحجاب العربي الاسود الذي اظنه يدعي البرقع وعند صعودها وهي ممسكة بقضائب صندوق اللوري الحديدية وهي قمم بالتزول في بطن العربة مع بقية الركاب هبت نسمة قوية من رياح ذلك الطقس الجبلي الخشن فكشفت حجاها لهنيهة عن عينين كان يصفهما العربجي قائلا : عيونا كانن خضر زي عيون اللبوة " ووجه سابري وبشرة ملداء ايقظت فيه فطرته البسيطة كانت هنيهة فقط كافية لان يترل وراءهم ويجازف بنفسه في منتصف الجبال بالقرب من العقبة وهن ما فتئن يحذرنه اذا ما واصل تتبعهن حتى مضارب الخيام فسوف يقتل لا جدال في ذلك . وقد تجشم صاحبنا في ذلك المشوار التي تكتنفه الصبابة تجشم عرق القربة. ولما وصل العربجي اخيرا الى

المضارب قوبل اول الامر بالنفور والحنق ثم بالطرد ثم لما لم ينفع بالضرب المبرح ثم بالتهديدات القاطعة من لدن اولاد عمومة البنت لكنه لما صمد مبينا انه طالب حلال رفع امره الي زمرة من المعمرين . وهناك احاطوه علما بسننهم وحكمة بقائها ولما اقنعهم بحجج منطقية الطابع وقارعهم بالاسلام قبلوا على مضض . اقول قبلوا واي شئ ، لكن رصاصة ليلية من مجهول راشت سالخة خده الايمن لانه التفت فعبرت الطلقة في خط مستقيم تاركة وسما كبيرا كأنه شلخ ، والحق لقد نجا باعجوبة ، لانه التفت في اخر ثانية وكان من المفترض ان تثقب الطلقة جمجمته ولما اصبح الفجر علي تلك الحادثة وكان هو قد بات في العراء تتشمم الكلاب جرحه وتتصايح وتجأر علي راحته داووه الشيوخ وتفاديا للمشاكل اعطوه البنت ، حتى اعتقدوا ان بنتا تجلب مشادات وجرائم غير اعتيادية للمضارب هي فال شؤم . كانت اربعة ايام فقط اربعة ايام من العسل الصاح على حد تعبيره ثم ظهر اولاد عمومتها ثانية في المشهد بعربة بوكس تايوتا حديثة وعربة لاند كروزر واصبحوا يقلقون راحة العرسان الذين كانوا يترلون بلكوندا من لوكوندات بور تسودان الكثيرة . هددوه وهددوها مظهرين اسلحة حديثة لم يسمع بها الجيش نفسه ففتح فيهم بلاغا لدى اقرب مركز شرطة لكن السلطات العليا بالدولة لم تكن قادرة على وقف هجمات الرشايدة في صحاري التهريب ناهيك عن الشرطة . والذي حدث ان الفتاة انحازت لاهلها وطالبت بالطلاق

وهو يقول اها كانت تطالب به على مضض لأنها عشقته اشـــد العشـــق كمـــا عشقها هو وكان يقول : "الاكل يجي ،الشراب يجي.. النوم ما يجي، اربعة ايـــام زي تصفيات الدوري العام، تسديد عالي يا صاحبي واهداف في الشبك " . بعـــد ذلك تزوجت الفتاة احد ابناء عمومتها واختفت من حياته كلية وهو كثيرا مـــا كان يردد على امل يابس ان له ابنا سيظهر ذات يوم وير اه لا ريـــــب وكـــان الرقيب قد داعبه انذاك قائلا :" اصلو ولدك دا نبي ؟".

# رجل غريب الأطوار

ما أن دخل الرقيب نصر الدين وارتج الباب وراءه حتي صاح وهو يخلـع بوته قرب حوض الحنفية : " الله يلعن الباصات وابو اليوم الجات فيهو " سـألته راحيل التي كانت تصب الماء في القفص الصغير للأرانب : " مالك مع الباصـات الليلة " فأجاب " كنت راكب في بص مهكع كوريلا علـى الله اخـير منـو الكراسي مفكفكة الجربكس معصلج الحديد يكورك صندوق مرتق دنقرت علـى حيي ادي الكمساري حقو وقع فين الكرسي القدامي بي ستو مـرة مانعـة زي التلاجة رفعناها ولمن جيت اشتم وانبذ عاينت قدامي لقيت مكتوب شنو جنـب السواق : لا تغضب فالحياة اقصر مما تتصور " سمعه علي العربجي الـذي كـان يستمع الي نشرة الثالثة فاغلق الراديو واقبل قائلاً لي " البوليس الفشنك دا مـالو هارج ؟ " قلت له وكنت مستلقيا اقرأ على العنقريب " الليلة يـوم الباصـات العالمي" فصاح به العربجي : " قلنا لك تعال ابقى عربجي معانا ,شرطة ايـه دي البتركبك مواصلات مع المواطنين، حرم قالوا في انجلترا العفين الزيك دا يكـون

واقف الصباح اخر فنكهة ووجاهات زي العريس يفتح ليك البلاغ زي كـــأنو فتح صفحة كتاب يقبضك كانوا قبض ليهو ماهية تتسجن يا ابوي في امانـــة الله كأنك في الهيلتون تلفزيون، اكل نضيف وراحات حرم يشهو النـــاس الخطـــا " ضحكت راحيل ضحكة عذبة كـــأنها منبعثة منذ الازل ثم اغلقت باب القفـــص قائلة وهي تدخل المطبخ : " نحن وين وانجلترا وين ؟" . كان الرقيب في ذلـــك الوقت قد بدل ملابسه العسكرية وهم بدخول الحمام حينما قال : " ركـــوب الباص في البلد يعلم الزول الصبر وقوة الاحتمال "

وكان العربجي قد عاد ادراجه وقبل ان يفتح الراديو ليواصـــل اســتماعه قهقـــه بصوت جهور لأنه سمع الرقيب وسط جلبقة الماء " تسمع الناس تكورك : أرحـل يا سواق ارح يا زول .. اتحرك كان بها ما تحرك البص يتقلب دلوكـــة ". هـــو رجل نادر أو بالاحرى رجل شرطة نادر لأنه من اولئك الشرطيين الذين يعـدون بالاصابع لا يحتمي وراء سترة الكاكي ابدا رجل يعيش علي سجيته لعـــز مـــا انشرح انا لرؤياه وهو من نوع اولئك البشر الذين ما ان تراهـــم حـــتي تســـأل روحك : "اين رأيته ياترى من قبل " رجل يعرف قدر نفسه ولا يضعها حيـــث زلت لذلك هو عزيز مكرم علي الدوام . احس به احيانا ملكا جالسا على عرش نفسه يخدمه مزاجه المتألق لكن الانطباع الاولي الذي يعطيه لمتسطحي البصيرة أنه متكبر وقد قيل لسيدنا الحسن يوما أن ما اعظمك في نفسك فقال لست بعظيـــم

ولكنني عزيز . كان الرقيب دائما طلق الوجه في عينيه حمرة ترنق يتصف باللطف العميق في توصيل الاشياء فلو اشانك رأيه فيك كان خليقا بك ان تحبه اكثر .نعم يمكنني أن اقول رجل متوسط. الرقيب نصر الدين رجل متوسط ليس رديئا كما أنه ليس بجيد على القياس هو حكيم مثل العربجي ايضا ولكن بشكل اخر هي حكمة الوسط التي اقصد كما جاء في الاثر النبوي الشريف " خير الأمور أوسطها " . فلو كان العربجي يتبع لحكمة الوسط بشكل من الاشكال فإن الرقيب يتبع لها بشكل آخر ، لست اعرف ربما لهذا السبب يدخلان في مشادات كثيرة مع بعضهما البعض عموما أنا ادعو الله لهما من نقطة تكويني أن يدخلا الجنة .

كان رجلا غريب الاطوار قالت لي شوقه خطيبته يوما أنه عندما قال لها لأول مرة " أحبك " خشيت حقيقة أن لا يعود اليها هائيا لسبب بسيط : شدة فرحته بحبها . دخل علينا ذات يوم متهلل الاسارير صائحا بنا وكانت تلك عادته لا يصبر حتى يتجاوز الباب " الليلة الرقيب دخل التاريخ " سألناه أن كيف تم هذا فأخبرنا أنه كان اليوم في المحكمة في الخرطوم ، في بعض امر العمل فلمح شابا يتقدم نحون حاملا مايكروفون وراءه مباشرة شابان اخران احدهما يحمل كاميرا تصوير خارجة فعلم بعد ذلك انهم ناس التلفزيون كان هنالك برنامجا مشهور يبث يوميا لمدة ثلاث دقائق يدعي " مواقف " يتم التجول وإجراء محادثة قصيرة

كل يوم علي من يسعفه الحظ وعند انتهاء الاسبوع يكون هنالك جائزة لنجم الاسبوع وهو الذي يتم اختياره من قبل المشاهدين في معرض الاسبوع الفلئت . وكان الرقيب هو حامل اللقب دون منازع في ذلك الاسبوع ، كان المذيع قد ساله عن موقف قد علق بذاكرته فقال خطبته البتراء كما اسماها العريجي لأنه لا سمى فيها الله ولا حيا المشاهدين ولا هذا ولاذاك فقط امسك بالمايك كأنه في حفل زفاف راحيل قائلا بعفوية حرة : " طبعا الموقف مر بي هنا في محكمة المديرية دي ذاتا .. كنت في الوكت داك جندي مستجد بالمناسبة المستجد عدو نفسه كنت حارس متهم في قضية اختلاس سقتو الصباح من الحراسة وقفت بيهو امام القاضي ووقف امامو الزول الفاتح فيهو البلاغ المتضرر يعني المحامي ووكيل النيابة والشهود وايك وايك أها كان في واحد من الشهود رجل علامة اذكر عيونو زي الفار .. دا اول ما شفتو قبل المحكمة قلت في نفسي الراجل دا مفروض يكون في السجن والحصل طبعا انا ما عندي أي حق ادخل في المحكمة بصالح او بغير صالح لأني مجرد ديدبان لا غير الراجل عيون فار جاء دوروفي القسم تحت ايدو في المصحف بي عين قوية وقال ليهو كلام هو في الظاهر منطقي ومحبوك لكن انا كنت سامعو ملتق ملتق من غير احم ول دستور شلتني غبينة دامغة وشعرت انو العدل دا حاجة زي كلام الاغاني كوركت : يامولانا الزول دا كضاب . القاضي نهرني يا عسكري ما تتدخل . وبعد ما الزول ما رفع

يدو من المصحف، لقيت نفسي مالص القاش والضكر نازل ليك فيهو هبت قـدام الجماعة وانا بكورك : كضاب تحلف اسم الله كضب ؟ يا زول القصة بـــاظت خالص حجزوني منو بي الله وجلاله وفتحو فيني بلاغ وتهجم علي حرمة المحكمـة ، اتصور واخدت بي سبب الأستاذ عيون فار ستة شهور حبس عسكري وغرامة ماهية شهرين وانا كنت شغال يا أدروب(كان المذيع يرتدي صديري) لي اسبوع وحقيقة ايها المشاهدين في انحاء الوطن الواسع حقيقة انا من ندمان لانو صاحبنـا عيون فار زي ما قلت ليكم كان شغال كضاب .. كضـــاآآآب ااي وفي نـــاس هسي يكون بشاهدو في في التلفزيون برضو شغالين كدة : حلافـــين كضـــابين كضب ما ليهو أي شئ الواحد فيهم يخت يد في المصحف زي كأنو خاتيـــها في شوال قمح شكرا . "هكذا كان الرقيب نصر الدين دائما رجلا يبحـــث عنـــه الكلام ، وطاقة في حركة دائبة ، لا تفتر .

وسوف يترك العسكرية لاحقا ، ويسافر لمدة سنتين يحـــاول الي احـــدي دول العرب ويعمل هناك في برج مراقبة بحري ، ويعود ليتزوج شـــوقه ، ويقطنـــا في نفس البيت الذي كان يدعي بيت العزابة ولكن .. بمفرده . كان يكرر دائما انــه بعد انتهاء مدة خدمته لن يجددها وانه ليس نادما بصدد شـــئ معـــين في تلـــك السنوات التي قضاها في قوات الشرطة لأنه اقل القليل قد عاش فيها حياة مليئـــة ولكنه لن يعود اليها البتة ، كان العربجي اذ ذاك يسأله" ليه ؟ " فكـــان يجيـــب

بهدوء "لأنو القانون ما بحمي المغفلين" . كان يكون مع شوقه بالنهار وتكون هي معنا في وقت العصر حتي المغرب تأتنس ونصر الدين في بعض المرات وراحيل وانا والعربجي ثم أذا اعتكر الليل تجده راقدا علي عنقريبه يتوجد ويتصبب بصوت مسموع كأنه لم يقابلها منذ سنة . وكانت تلك الممرضة الذكية النشطة قد حكت له بالتفصيل الممل عن السلب والنهب الذي يتم داخل نظام المستشفى من قبل بعض المسؤلين والموظفين علي حساب صحة المرضى وعن عمليات الجرد السنوية التي تشعرك نتائجها بالخجل وعن سرقة ملابس المرضى الداخلية التي ينشروها بعد غسلها وعن الادوات والادوية النادرة التي يقال لك في شباك الصيدلية انها معدومة ثم تباع بأثمان سوداء في البيوت والاحياء وعن كثير من الاشياء الورائية حتي اضحي الرقيب محيطا بما يحدث في المستشفي كأنه " رقيب طبيب" على حد تعبيره ، وكان العربجي يعلق اذ ذاك قائلا" فساد الاخلاق بيهدم زول لكن فساد الحكم بهدم أمة " . وعجيب امر التطابق في السير والدروب فأول مشوار يتمشى فيه الرقيب وشوقه بعد ان تقابلا كان بعد ذلك بسنتين نفس مسار " نزهة العرسان الاسطورية " لكن الرقيب وثق لذلك بأغنية وكان يحلو له ان يغنيها في نهاية الامسيات أو بالاحري لنهايتها لأنه ما اذ يرفع عقيرته بالغناء تنخرب الامسية حتي ان علي العربجي كان يقول له إذا اصابه السأم واراد

نوما : " ارح يا اخينا غني البنبان بتاعك دا هسه نحن طلبة تب ". كان الرقيب يغمض عينيه ويغني :

كان العبور شرف السرور

كان بشارع الاذاعة

السبت قدحي يابس

والخميس كانت مجاعة

بير ومافيش دلو

قصة تجبر تجر

آه ريدك حلو

أه ريدك مر

هكذا حاز الرقيب علي لقب الشاعر بجدارة من جمهوره المتواضع في بيت العزابة وكان بعد ذلك بمدة هو شاعر علي العربجي المفضل وكان العربجي يحفظ له ابيات بعينها ويرددها دون ان يشعر وهو يفعل ذاك أو هذا :

الخلوق جارية جري الخيل

والرزق راكي فوق رأس جبل

سيدي شايلا الخلق ذلعة

لكني جاهل قساوة السجار ولعة

ولكنه في ذلك اليوم كان به حزن وعينيه مضمختين بألم خفيف كـــان مطرقــا فرفع راسه وقال لي :

"انا دائر اقول ليك : انا عمري ما ندمت علي شئ فات لكني دائمــــا بتذكــر الحاجات زي البقر لامن يجتر العلف وكل ما اتذكر افتح عيــوني وارنــدق زي الديدبان في الاستعداد لأني مومن انه الانسان مخدوع خدعة كبـــيرة فجــأة ح تنكشف ... متين ؟ والخدعة دي شنو بالضبط الله يعلم "

وفي نهار اليوم التالي مباشرة بعد عودتنا من اشغالنا وكانت راحيل قـــد تـــأخر غداؤها وكان العربجي قد نقت ضفادع بطنه لا يتحدث الا ايمـــاءا ولا يجيـــب سوي بالاقتضاب . كنت انا راقدا استمع الي شريط موسيقي بجهاز علي العربجي وكان الهول الذي يفصل بين حجرتي وراحيل وحجرة الرقيب العربجي حميمــــا ماهلا عند دنو وقت العصر تنبعث من جدارات الزبالة العتيقة الكبــيرة وداعــة تناجي الظلال . دخل الرقيب نصر الدين لكن علي العربجي صبع نحوه قـــائلا : " امش .. امش هناك هناك " وابتسم الرقيب وذهب الي رقعة مشمسة بالحوش لان رائحة بوته كانت كارثة حقيقية . كا ن العربجي يلف عمامته حول حنكــــه و رأسه شأن شيوخ القوم عيناه محمرتان وعرقين في منتصف جبهته يبدوان نـــافرين ويبدو عليه الحزن العميق الذي لا يدرك وكانت عيناه همما زيت هـــائم وكنـــا متعودين ذلك منه وكان هو يسمي هذه التقلبات احوال وحينما يكون مستحولا

لا يحب الكلام . الذي اندهش له انا كلما تذكرت تلك الحادثة هـــو التوقيـــت الرهيب الذي دخلت به راحيل الي الحوش وفي نفس الوقت انسياب حمامة بيضاء من الجانب الاخر وقفزة علي العربجي غير المتوقعة وامساكه بالحمامة كأنه تناولهـا من رف ثم السرعة الواثقة التي كبر بها تكبيرتين مستلا سكين ذراعه وسمـى الله ثم ذبحها على الارض ، كنا مندهشين انا في عنقريبي لم ابـــرح والرقيـــب ماسكا بيده احدي ر جليه ور احيل التي صارت تمثالا شاخصا في متصف الهــول بعدها قال العربجي بصوت واهن محشرج وهو يمضي بالحمامة التي تقطـــر الــدم صوب المطبخ ليشويها بنفسه : " الله في .. رزق جاء من فوق .. غداكــم دا الا يمرق بي كفالة والا كيف ؟ " غداة ذلك اليوم كان العربجي يلقب مـــن لــدني وراحيل بالشيخ وكان الرقيب حينما يريد اثارة حفيظته يصيح بصـــوت نكـــرة وهو راقد : " مدديا الشيخ .. ان شاء الله ود ابرق " هذا وينبغي لي ان اقــول ان صدفة ملاقاة الرقيب وشوقة كانت بسبب علي العربجي لانه منذ سنتين تقريبـــا يوم ما كان يشحن الواحا كثير ة من الثلج حينما باغته الا لم في بطنه حـــاول ان يتم المشوا ر ضاغطا علي نفسه لكن الوضع تأزم واضحي من العسير عليـــه ان يقف وكان يجلس بالكاد .

فحث حصانه ووجه الكارو صوب مستشفي ام درمان وهناك قابل طبيبا اخـــبره ان من دربك هذا اذهب وارقد لعملية زائدة دودية عاجلة وفعلا تمـــت العمليـــة

بنجاح ورقد العريجي بعنبر الباطنية وكانت تطابيه ممرضة سمراء نافذة الطبع وديعة الذوق وسوف يعرف بعد ذلك انها شوقه لكن الرقيب لم يرها بادئ ذي بـدء في العنبر انما امام صالة العنبر في الخارج متكئة علي الدرابزين تجهش بالبكاء جـــراء حادث حصل لم يكن عندها به ثمت دخل والذي حدث انه كان هناك طبيـــب داخل حجرة تغيير الملابس كان يجري عملية اجهاض لفتاة شابة و لم تكـــن لـــه سابق تجربة بهذا الامر ضف الي ذلك ان الموضوع برمته لم يكن شرعيا وحين مـا تفاقم نزيف البنية وفقد هو السيطرة علي الوضع فتح الباب وارتجه وراءه بهلـــع ماشيا بتوتر واضح نحو الكافتريا بمنتصف المستشفي لينادي علي سستر خبـــيرة بتلك الامور ، وذات صوت رجولي معروقة الرسغ, وجدها جالسة تشـــر ب كوب عصير مع أناس بدلا من ان ينادي عليها فورا ارتبك وكان مهلوعا اشـــد الهلع لعله اعتقد ان نداءه وهي تشرب العصير سوف يثـــير الشـــكوك والريـــب فينكشف امره,ففضل ارجاء ذلك الي ان ينتهي العصير والذي تشـــربه السســـتر ببطء وهي تثرثر ولكن نزيف الدماء لم ينتظر , فإذا به هناك من الغرفة سال امـلم جماعة عابرة بالممر الضيق خيط احمر قان من تحت الباب الابيض ولمـــا اقتحـــم الغرفة وجدوا البنت طريحة الارض في شبه اغماءة بعد ذلك عولجت وعملوا فقط مجلس محاسبة للطبيب في نفس اليوم لنظام العرف الاخلاقي لمهنة الطب ، دفـــن الامر وانتهي الي ذلك .

اما شوقه حينما انطمس الامر واندرس , وكانت هي من الذين حملــوا البنــت بالنقالة الي غرفة الانعاش فلم يهدالها بال فأخذت تبكي وهي متكئة بـــالدرابزين امام عنبر الباطنية , وفجأة من اين لا تعر ف كان الرقيـب نصر الديــــن يقــف خلفها وهي بعد لم تره عيناها , يقف كأنه رسول المواساة في الار ض وقال لهــا مخففا عنها " لكن الموضوع دا عادي " فقال بحشرجة وهي مطرق ما تزال " مــا عادي .. عادي كيف يعني ؟ " قال لها بنبر حزم : " انت شغالة مضيف عشـــان تقولي كدا ؟ ما ممرضة !! " وهنا فقط رفعت شوقة رأسها وشخصت ببصرهــا لترى محدثها والذي انقلبت لهجته مرة واحدة الي تهكم وزجر التفتت بدهشـــــة لتلتقي نظراتها مستطلعة بجفنيها الذين فرقت الدموع الرمـــوش فيــهما لتلتقــي بنظرات شاب له عينان حمروان يلبس بزة الشرطة ويمسك بيده كابه محتضنا ايــاه على صدره كأنه في عزاء , قمحي البشرة ترتسم علي ملامحه ســـخرية كامنــة والرقيـب نصر الدين يقول عندما يتذكر هذا الموقف ان هنالك سهما حارقا نفــذ في عينيهما معا , وهو يستبعد ابليس من تلك الرمية لسبب بسيط : ان الشياطين تتأفف من دخول مستشفى أم درمان . حينما رفعت شوقه راسها بدهشة ســألته بحس رقيق :" لكن انت منو ؟ " فلبس الرقيـب كابه بهمة وعدل من وقفته بحيــث اضحت اشبه بوضع الانتباه قائلا : " أنا ..أنا .. الكنت بتكلم معاك قبل شوية".

# محاضرة أب روف

"سالم "

لبيك وسعديك يا قطرة هى اول الغيث وآخره .

"يا سالم !"

أي نعم مولاتي .

"سولييم ؟ "

"أوووه أيوه ؟ "

" اطرش ؟ أسوي الغدا ؟"

سوي ما تسوي .. ما من شئ يفوت انك سطوت علي قافلة كياني ذات ليـــل دامس في صحراء الشك . على فكرة , قلبي قطعة الزلابيا التي رمتها الاقـــدار في زيت عينيك الذي يغلي .

"راحيل !!"

"نعم "

"نعامة تسكلك لي مدني وين القميص المشهور ؟ "

"ياتو فيهم ؟"

"الفي الرف التمتاشر , المربعات المكوي خليهو تحتو مش في عشرين قميص ؟ خليهم زحي اكياس الفنايل الجداد . تلقي خمسة صناديق ريحة جمبهم في بوكس دبل قبين ترجعي الرف التحت معاك الستة ناقص رف البدل والكرفتات، تلقي القميص المشهور في رف الجزم " ( تضحك بمرح قوي . )

" خلاص . خلاص عرفتو . الله لا يكسبك "

كنت وراحيل طيلة الستة اشهر ، مواطنين صالحين في جمهورية اليقظة الدائمة . في برزخ المودة نسكن . تتأود هي في حناياي اهجد انا معتكفا في شغافها نعود لنتحد في محراب الشهوة الآمنة . كنا حينما نأتنس رجما بالغيب في شأن اولادنا القادمين يتخذ وجهها سمة الشروق ، فالمح الامومة السماوية عليه واضحك بمسئولية فكأني جوقة من الاباء مرة واحدة .

"كان جات بت حأسميها طاهرة "

" وكان ود ؟"

" يكون اسمو ابو .."

"أبو القاسم ؟ "

" لا . لا . "

" ها .. "

" أبو القدح "

"ابو القدح سالم صلاح . الله يلعنك " (تقهقه )

التباريح ستار انفتح عن مسرح الافق . والارض في مقرن النيلين تبدو عجوزا بشيب اخضر . الخرطوم عاصمة الاخضر . الاخضر امير الالوان . الشمس تسحر رقع الليمون علي الشاطئ المقابل بالحنان المعتدل . امرؤ القيس يلاعب ميراندا الشطرنج أمام نهر النيل الشريف . راحيل يا بلور النقاء . اداعبها كطفلة لم تتجاوز الخمس دقائق, تداعبني كأني شاهد طوفان نوح اقف بعيني علي حرف العنقريب مستشرفا مشارق الارض ومغاربها ثم انقض كالنسيم عني صفحة للمياه . تضحك متكومة في ضمير الحب . تتكرفس الملاءة بيننا الف مرة لكنها لا تقول اف مرة واحدة "قولي خمسة حاجات "

(تعد باصابع حانية ) " رجوع الغايب . توبة العاصي . سلامة الباطن . غني الفقران . شوفة النبي . "

" لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . طيب أربعة "

(تصمت برهة )" المرض . كشف العورة . الفساد . الحبس "

" لاحول ولا قوة الا بالله . حاجة واحدة "

"النجاة من غضب الله . "

" الله . الله . قولي اتنين "

" الالفة والمحبة "

" الله يطربك "

ادغدغها في ينابيع الحس . تصرخ متكتمة مثل مياه بئر . تحنق علي بجمال بـالغ . تعضني في عنقي تتوسد ذراعي تتنهد كما البحر كما شجرة لبخ مرهقة من الظل الكثيف .افاغمها ونغيب في قبلة هي اقصر من العمر واطول منه بقليل . تتنـــهد ثانية كزفرة جهنم في الشتاء .

"قولي تلاتة حاجات "

"رجعت للناس ديوهم ؟ "

"الله ينعلك "

الفها بالملاءة وادخل كقرد يدخل الغابة فتضحك . تشتعل في حقول نفسي . انـا وراحيل في تويج الانس ، في الفجر تغدو الطيور الخضراء اللامعة . في الظـــهيرة تقيلل الاسرار . في العصر تترقق المياه في الاشياء . في المغرب ترتفع الطفولـة . في الليل يتسلل ضوء القمر التام كلص وغلالاته اوركسترا النشوة . نرتقي . نلتئـــم مثل جرح بالغ . نشارك بني البشر والكائنات الالم ونعمـــة العيـش والخطـأ

والصواب والسرور وطلعة النفس ونزوله وشرب الماء . نتحد مجسدين جبهة قتال ضد العدم ، نتحد مجسدين لبنة من لبنات الوجود الشاسع .

كانت راحيل تحب التطيب ، تضمخ جسمها بزيت الصندل اوان النوم حتى يخضل ، وبالنهار تضع بختين وجيزتين من عطر غال كان قد اهدينه اليها الغولات الائي صالحننا بعد انقضاء الامر واستتباب الاسباب .

كان يتضوع رياها طيلة الليل والنهار ، حتى خيل الي ان شرايينها هي التي تنتج الرائحة الذكية .

لم اسمعها طيلة الفترة التي ضمتنا تحت سقف واحد وهي تنادي العربجي بغير : يا عم علي . كان الجميع ينادونه بالعربجي و لم يكن في ذلك ما يشين . لكن علاقة وطيدة وغير جلية بعض الشئ جمعت بين راحيل والعربجي منذ اول يوم وطئت فيه هي البيت وانتفى اسم بيت العزابة . لقد طرأ لي اول الامر أنها علاقة ابوية الطابع لأن راحيل كانت قد فارقت اباها مذ هي طفلة ثم ما لبثت ان قلت أنه التقاء ارواح فقد سمعت العربجي يردد كثيرا الاثر النبوي القائل : الارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف . ثم اجتاحتني بعد عدة شهور موجة غيرة عابرة لكنني كنت اعرف راحيل والعربجي كما ارمق الماء من خلال كوب زجاج . ثم بعد فترات وفترات وربما بعد فوات الاوان بعض الشئ بعد سنة او سنتين عرفت السر الذي جعلهما يتعاملان بالحياز لقبيلة معينة : البساطة

. وبالفعل كانا هما الاثنان سفيري البيت لدي الاخرين وكمـــا اســلفت فــأن العربجي كان بشبكاته العفوية التي تتصل بالقلب مثلما ترجع بصرك الي مشهد ، ورواحيل التي منذ ان وطئت ارض الحي ، عوملت من قبل النســوة اوالصبايـــا ، وحتي الاطفال ، كأنها ملكة حلت في اهلها بالسلام والوفرة أو كأنها تميمة الحـي ضد عوادي الزمن وظفت البيت المعيشة المرتبة المتناسقة والراحة من العنـــاء . كان يومها مليئا حتي اخمص قدمه في الصداح المطبخ الذي اضفت عليه سمـــات النعمة بعد ان كان شبه مهجور مما جعل علي العربجي يقــول " وكــر باقــاث العرقي الله فتح عليهو بقى تكل ."

وفي وقت القيلولة كانت تتصفح مجلة او تقرأ كتابا ولكن ولعها الشـديد كــان بكتاب غلافه اخضر يدعي قاموس تفسير الاحلام فكانت تقرأ فيه حــتي تغفــو لتستيقظ قبيل الظهر ، تعد الامكنة بالترتيب ثم تصلي الظهر ، وكانت احيـــان كثيرة لا تصلي في المواقيت الضبط بالربط ولكنها علي أي حال لم تكن تجمــع بين صلاتين الا بعذر . ثم نأتي نحن كل من مجاهل ما لاقــي في عملــه ويومــه فتنهمك هي في عمل الغداء والشاي الاحمر وتكون في الغرفة لتفعل بعض اشيائها . في ما نحن بجنينة السيد علي كما اسماها الرقيب والعربجي نتــاقش حــول أي موضوع في الدنيا وكانت مشادة بعد الغداء بمثابة تمرين خفيف لمشادة الامسـية . ثم ينفض كلاهما وقد داهمه النعاس لنومة حتي العصر . اما انا فكنــت اذهــب

لمراقبة ومراعاة الارانب التي كنت قد اشتريتها بعد الزواج في زاوية المنزل الخلفيـة واطعامهم ان فات علي راحيل ذلك , وتأملهم وهم يحفـــرون او يســـتحمون اوينطون .

ثم امسك بخرطوم المياه وكانت تلك احدي متعي ارش الحوش كاني ارسم . ارش بدقة وتفنن واروي الشجيرات وصريف الحناء الذي يذكر راحيـــل مـــنزلهم في الدمازين ، والليلاب المتهدل على وجه الارض , واللارنجة الحزينة كما اسميـها وشجرة الليمون العزيزة ومختلف الشتول الجديدة فتهب الريح قليلا ان اكرمــك الله برؤية ذلك لتهتز جميع الاوراق كانها تعطي الريح شبالا فتسقط من رأس كـل واحدة قطرة ماء .

وآنما يخبط العصر على الباب الوقت ، نكون انا والعربجي قد احتلسنا في جنينـــة السيد علي المستوية على الطلاوة والنداوة ورائحة التراب المبلول . يعقبنا نصـــر الدين بعدته النارجيلة , الماشة , وجمرات صغيرات يضعهن بخبرة علـــى الجـــراك المعسل بعد ان يرمي نصف ليمونة بدورق النارجيلة الزجاجي ، بعدها يقتحـــم جيش نسوة الحي المنزل اقول يقتحمن لان الصيحات اللذنة تنتشر بغتة مع تحيات بشوشة متكتمة نوعا ما ، لكنها تحمل في طياتها الفضول والجرأة اذ يسترقن النظر الينا جليا وهن يحملن برطمانية البن والشرقرق لعمل القهوة الكافرة علي حـــد تعبير الرقيب, مناديات بانغام خفيفة الدم :

" أها جيناك يا رحول "

"هأ . ها ها القوم جا يا جوه ، ها يا رحول "

ثم يعسكرن في الهول الذي بين الغرفتين ينصبن المواقد ويبدأن الثرثرة والضحكات الغامضة . والذي كان يعجبني في اولئك النسوة اهن كن يتكلمن في الامور الفارغة بمنتهي الجدية والاهتمام . لقد سمعت صدفة احداهن تقول هي تصف بيدها وتنفخ شدقها وبدت علي عينيها نظرة امر خطير بصوت هامس لكنه حلو كأها تصف أمرا جلل " قالوا تتحوغر في الموص ، سمنت يا يمة لمن الهواء طرشق " .

خلاصة القول ان البيت غدا مكة الحي حتى قال الرقيب يوما " البيت دا كان مراح قبل راحيل "

فجأة أحسسنا بالحياة تدب من حولنا في اوصالنا ، كنا نعيش كما لو ان البيت محطة لا غير ، فإذا به اضحى العرزال والمرفأ والغاية . يا سبحان الله . كأن راحيل كانت بيرق المحبة ، والناس من حولها رياح لا تهدأ . أرمقها بين الحين والحين . المح الانسجام الرباني عليها وهي تفعل الاشياء . تدندن لحنا مفطوما لتوه وهي ترفع غطاء حلة البامية فينبعث بخار كثيف ثم تغمس اذن المفراك فيها وتضربه برفق علي كفها اللحيم وتدنو بوجهها ليخرج لساها متذوقا بعدها تطرق لبرهة ، كأها تقيس مقدار النضج ثم تعيد الغطاء مرة اخرى . لم تختلف

مرة واحدة ، خرقنا كل نواميس العادات السمجة . كنا نتحادث بعفوية اصدقاء قدامى . ننام ملتصقين كما خلقنا الله بإيمان غريزي يطوف في ارجاء المجاهيل ، هذه البنت كانت اكسير البراعة تحول معادن حيرتي واضطرابي الى ذهب الوئام . وفي تلك الليلة العائدة من حرب الذكريات . في خضم الزمان الناعم ، حيث لم نكن ندري بخفاياه الجائية والذاهبة في تلك الغرفة المظلمة كنا نتمخض في رحم التصوير ، فكأننا داخل اول كاميرا اخترعها الانسان ، الطاقة في اعلى الحائط التي ينبعث من خلالها الضوء تحاكي صندوق سحري ضيق في احد جنباته . وجه راحيل مرآة مائلة على وجه المغارب ، وحاجبها الايسر يتلقى بذؤاباته الضوء المنعكس . كانت هذه الخطوة هي الطريق نحو الاصل المنصرم ، نحو الصورة الراهنة ، وان كانت قد استخدمت لتسهيل عمل الرسامين وتحويل المناظر العظيمة الى صور ضوئية صغيرة ذات بعدين في ما مضى , ليتتبعوا خطوطها بأقلامهم والوانهم ، فإنها الان تستخدم لتثبيت راحيل في ذهني المحترق . لأري الاطفال ، ملايين من الاطفال النوريين يرتعون في الاعياد وغير الاعياد بفسحات وشوارع وبيوت جسمها الشريف ، فتنهض هي بكسلها المعتاد رافعة سبابتها كأن الهواء يساعدها في النهوض فأرى البعث والنشور ولكنني لا اري المستحيل

أقول في تلك اللحظة التي يعجز قلمي في التعبير عنها وليس لانه عاجز انما لانها تفلت من تقييد الالفاظ كما تلفت اللحظة من الوقت ، كنا نتذكر كل شئ .

كانت راحيل تعتقد اني فنان عظيم , ولكنني كنت اعتقد ان لي زوجة عظيمة. اشك في كثير من الاحيان اينا ينهل من نبع الفن . وكان آخر ما تذكرناه ونحن نضحك ، موقف تعبان المشاكس الذي ذاع صيته ، واصبح نادرة تحكي والتصق بتعبان طيلة حياته بعد ذلك ، وكانت راحيل قد اخبرت النسوة به ، حتي ضقت انا منها بادئ الامر ، ولكنني بعد مدة وجيزة لاح لي الامر طريفا ، ونـد عن شجاعة ادبية منها جعلتني اكبرها أكثر .

كان في ذات عصر ، واصوات القمري تتدافع مثل زحام مواطنين امام شباك فرن في وقت ازمة . كانت اخر زفرات الشتاء المحتضر كانت رحول تطرز ثمة فتوق في ثوبها الذي ترتديه ، وكنا انا احفر لغرس شتلة فايكس جديدة ، كان الرقيب والعربجي غائبين في بعض شئونهما ، وقد كنا عادة ما يخلو الجو حتي تبدو احاديثنا اكثر لطفا وتحررا ، وكنا اقرب الي التماس الاعذار حتي نقترب من بعضنا البعض وندخل في ذلك الجو الحميم بتدرج آسر .

غسلت انا يدي من الطين وجالستها حتي اذا رتقت فتلة من الخيط فتقت باصبعي ثلاثة فتقات حتي افسدت جهدها كله ، وانا اضحك فاغتاظت واخذت توخزني بالابرة في ظاهر كفي وانا اتقلب من المزاح ثم حملتها فجأة

وهي تتوعد الى الحوش ووضعتها في العنقريب واصبحت اداعبها وانزلقنا في هوى لا قاع له . هوى يمتد الى الذرى. فإذا بصوت تعبان من فوقي يصيح بهلع :

"دين أماااااااااا....!!"

ارتفعت ببصري لأجده متشبثا بالحائط حتى منتصفه وعينيه شاخصتين , وما أن انهي جملته حتى كان الابريق تحت متناول يده واندفع كالسهم ليرتطم بصفحة جبهته فيرتد الى حوشنا ويقع تعبان ذلك المشاكس في حوشهم مطلقا صيحة مكتومة .

بعدها كان يسير في الحي بكرضمة أشبه بثمرة البنادورة على جبهته, وكان اذا رآني او رأى راحيل تبسم , فنضحك نحن بدورنا حتى تطور الامر وشاع ، فاصبح يلاقي كائنا من كان فيبتسم ويبتسمون له .

وكان علي العربجي آن يرخي لجام وسرج الحامل من ظهر حصانه ويتكي العربة على الحائط وهو عائد من الشغل ،قائدا الحصان الى شجرة النيم ، أحيانا يفاجأ بتعبان خلفه فلتفت اليه صائحا بصوته الغليظ :

"دين أماااااااااااااا !!"

وكما اسلفت فإن راحيل كانت تخرج معي يوميا ما أمكن لها ذلك لمختلف الاماكن ، وتشاركني في حمل الكاميرا والكراسات لدراسة المواضيع والمناظير أو

لاستطلاع المعلومات الشفاهية . كنت وقتها أعد لمشروع حياتي الفنيـــة الأولى ، وهو عبارة عن معرض موثق بالصورة والقلم ، لأماكن وافكار واشياء احبها . كان وجودها بجانبي هو صمام العزم واشتعال فتيلة الدأب ، وشدة العزاء الجميـل . كنت بالعصريات ادرس شاطئ اب روف ، مجريا عدة بروفات بـــالزووم ، ثم مرسى اب روف القديم الذي كان في ما مضي حلقة وصل ، اذ كانت مراكـب التجارة الكبيرة ذات الاشرعة الفارعة وبطنها الرحيب ، الذي تربطه الجواقيـس بالعرض كالجسر ، منسوجة بحبال العناقريب ترمي بمرساها هناك وهي قادمة من دنقلا أو كوستي أو جوبا وبالعكس . وايضا هياكل المراكب الجديدة الاشـــبه هياكل السمك بعد اكله ، ورواكيب الحطب من شاف وطلح وقلـــل وازيـــار وغيره . وامامها مباشرة دكاكين الحدادين بابداعات ابواهم الحديدية الحديثـــة . وكانت راحيل هي التي اقنعت ناسج النول العجوز أن يرضـــى بتصويـــر آلتـــه الخشبية العتيدة وباب بيته الذي من خشب السنط . كان التصوير أحيانا يتطلب منا الخروج نهارا او فجرا حسب وضع الشمس المطلوب وتحديد ميل الظـــل . وكان من الاماكن التي ذهبنا اليها كرتون كسلا بالحاج يوسف ، والتقطنا هنـاك صورتين للسوق المائج بالخلق ورواكيب الخيش وبائعـــات الاطعمـــة والتبـــش والشطة والطعمية . وكانت اللقطة الثانية ليلية لصف طويل من بائعات الشـاي ،

وكان يميز هذه الاخيرة تهويم الظلام الشامل مع نيران المواقد والفوانيس والشموع

.

ثم نحن من باص من لباص حتى نكون في اليوم التالي صباحا في سوق البوستة ام درمان أمام بائعي الكتب ، فتتقدم راحيل لتتصنع انها تقلب الكتب المفروشة حتى تظهر مع الظاهرين ، واقرفص أنا كالحدأة ومن أسفل أكون منظورا بحيث يكون هنالك نهر من الكتب واشجار تنحني مقلبة للكتب من الضفتين حتي مربع التلاشي . ولقطة أخرى من تحت لفوق مشربية جامع فاروق ذات الطابع الشرقي ونقوش عمارته الاسلامية ولا تعرف بائعو السمك بقفافهم على شاطئ الموردة ثم مطاعم السمك والصير ، وكمائن الطوب في الجريف شرق تلك المدينة الطينية الساحرة مع غروب شمس ، وكمائن الجير بحي الدباغة أم درمان ثم قباب مقابر حمد النيل بامبدة التي تشبه من بعيد تاج محل .

غير أن ذلك العصر الذي انتهينا فيه من التصوير لم يتبق لنا سوى عملية التحميض ، كان عصرا خالدا قرفصنا فيه على النجيلة في نفس محاضرة الترويح التي ارجعتها الى اسمها الذي طرأ لي أصلا من زما ن مضى وهو محاضرة أب روف أقول كان ذلك العصر خالدا لأنه كان آخر وقت نجتمع فيه أنا وراحيل والكاميرا .

أستعدت فيه أول ما امسكت بكاميرا ماركة زنت روسية فأحسست برهبة و لم أكن ادرى وقتها ان التصوير قدري وأحسست بثقل اخرس لجسم الكاميرا ووزن صارم كانها سلاح ، وفعلا بعد ذلك آناء ما كنت اجرب بها كان تحركي وثباتي يشوبهما وضع عفوي اشبه بما يسميه العساكر القيام .
أكفهرت الرؤيا ولكن .. لميقات معلوم .بعدها رايت نفسي سائرا في واد عجيب تربته طينية كميت أقرب الي الاحمرار وبه حشائش زاهية مما لم تألف عين ، وورائي سرب من الحسان البيض ياتنسن بي وآنس لهن فإذا ببيت من الطين الزبالة دخلته وحدي الي غرفة تطل على الوادي ولما فتحت شبابيكها الخشبية قصد التهوية : رأيت نفسي قادما من بعيد على شعاب وكسور الوادي وحدي الوح لي ، فلوحت بمزيج من الجزل والغم لنفسي وانا قادم من ظل الأفق .
وبعد ذلك العصر أنتهى كل شئ .احترقت الافلام وهشمت انا الاستديو قطعة قطعة بعدما شتمت صاحبه ، وتقاعست الدنيا عن زهرها ، عليها السلام .
ماتت موتا كما يموت الناس . راحيل ماتت ، أي وجه استقبل به .؟ في نفس ذلك المساء ماتت في أحضاني وضعتها برفق ، لم افعل أي شئ ، لم اقل أي شئ. ليل طويل ابتسم بخبث . كانت أجمل نائمة عيناها مفتوحتان. راحيل ماتت يا نفسي . كان في عينيها حميلة حزن تتلألأ ببرتقال الوحشة . كانت أعصابي فوق

رؤوس البيوت تنط وتتصايح وبعضها تسلق الاشجار وبعضها سبح في النهر وأنا ساكن كالحجر لا يتحرك بي ساكن.

ويبدو ان ما حدث كان بسيطا جدا . بسيط الى حد الداهية . راحيل ماتت . لم تزمع ذلك لكنها ماتت . خلاص . وأيه يعني؟ مات الانبياء من قبلها . مات ابي . كل الناس سوف تموت . هه , ماذا بعد ؟ كانوا كلهم ينظرون الي بشفقة واخذ بعضهم يبكي وبعضهم قبل راسي . من هم تحديدا ؟ لا أذكر . شيء عادي ، من تموت حبيبته على أحضانه ايها الناس يحق له أن لا يذكر شيئا . نعم لا أذكر كيف ماتت . كانت تترقق وتتحرك وتجئ وتذهب وتتلألأ وتلمع وأي شئ .

كان لها بصيص كورقة خضراء يانعة تتحت قطرة ندى فوخزها الشمس بإبرة ضوء . كنا نطرح على الرطوبة نتأمل المكان الشجير الذي نأوي . كانت راحيل وسط العناصر مجلوة على نار الشاطئ كرمز طبيعي لألهة الأنوثة ، وشخص الوجود البعيد .

تقاعست الدنيا عن زهرها وهي بعد لم تعتذر للرحيق عن عدم مراعاة فروق الوقت . كانت تضحك يا كوكب عطارد نشوى بدورانك الرهيب حول الشمس قبل دورانك حول نفسك . كنا نراقب و أمامنا نفس الجزيرة الرملية التي رأيناها ونحن في اسبوع زواجنا الاول قبل ستة اشهر فقط . أقول ونفس

انحسار النهر كأن الوقت لم يتحرك اكراما لها . وكان انعكاس الكركي الابيض على الماء كمحوة تباشير بإبهام ساحر .

حينما ماتت راحيل تأوه جوهر الرقة ، وارتبكت الظليلات الذهبية على سيقان الاعشاب في المياه الضحلة ، ورأيت التاريخ بكامل الوانه الفاشلة يتلألأ على فقاعة تنفسها الطين المتشبع من قبل أن يهضم الماء ويتجشأ فتنفثئ .

حكت لي في ذلك العصر الخالد عن طفولتها . يا سبحان الله طيلة زواجنا لم تسترسل في الحكي كم استرسلت في ذلك اليوم . كانت ستة اشهر من التفاعل التام بين الاشياء تلاها يوم عقيم ويوم عظيم .وقبلها كان ان تفاقمت اغماءاتها المتكررة . فكانت تصيبها رعدة تسري في جسمها الشريف كالكهرباء . وتغيم عيناها في غشاوة تبدد نفسي في الهواء . تمزق روحي اربا ثم كما تغرب الشمس تستكين .

ولما تستيقظ غالبا بعد مدة ليست بالوجيزة تكون مصابة بصداع يكاد لا يفارقها ولكن بعد مرور ساعات تبتلع حبوبا لا من أين كنهها وكيف كانت تنظم ابتلاعها وتنام طويلا وعندما تستيقظ تكون في أوج القوة والانشراح والنشاط ، مشرقة أبدا ، ولكنها تتضايق اذا سألتها عن صحتها .

حاولت مرارا اقناعها الذهاب الى المستشفى لكنها كانت تقول بحزن مغموم : قلت ليك مشيت لي دكاترة قبل كدا وصرفوا الحبوب دي .

كنت قلقا بصورة مزعجة لأني كنت اعرف أنها مريضة لأن احدى خالاتها قالت لي ذلك يوما عندما ذهبت لخطبتها ولكنها مريض بماذا الله اعلم . لقد هرطقت لي احدى خالاتها انها "عندها زار مستشري " لعنها الله ولعن الزار . ذهبت على عجل وقابلت شوقه وقصصت عليها الامر وقادتني الي طبيب بدا عليه انه يعرف الكثير بنظر اته الوعيبة .

سردت عليه ما تم خلال الشهور الفائته كان يتابعني ايماءا برأسه كأنه يترجم ما اقول بلغة اخرى ، وعندما انتهيت قال لي بهدوء :ما كفاية كلامك لازم اشوفا بي نفسي .

كانت هذه هي المعضلة الكبرى كان هذا الموضوع مصدر ربكة عظيمة للجميع ، كان يتحاشون الخوض فيها فكأنهم يتحاشون موجهة انفسهم بما تكره .
اصبحت انا بعد ذلك غير مواظب للعمل الا مع مشر وع المعرض حيث لا نفترق . عصبي المزاج وكنت احاول جهدي ان اخفي عليها دواخلي وكذلكم هي . كأن هنالك بركان في نفسها تجهد ايضا لاخفاءه عني . كنا نلتقي في لغة مشتركة هي جسر من الرحمة والاتحاد ، نضحك ، نعم نضحك ونحب بعضنا أكثر ، كان ذلك اقصى ما فعلناه في حياتنا . وفي ذلك اليوم الداكن ، يوم الاغماءة الاخيرة ، لم تنفتح بعدها جفناها ابدا ، كنت انا كبيرا تند عنه امور

الصغار . قبلها كان قد اغمي عليها في مركبة عامة اغماءة طفيفة فذهبت بها الي ذلك الطبيب الذي همست له بعد أن كشف عليها :

" نعمة بالله ، عندها شنو بالضبط ؟ "

"...سرطان "

سم زرنيخ من الوهم سر ى في جسدي .

" وين ؟ "

" في الجوف"

"والعلاج ؟ "

" بيد الله "

عيناها حلم فيه سلة زجاج هشة ويد ترمي بكرة حديد . كانت تنظر الي لا رامقة اياي ولا متفرسة , بل مخترقة حجب الايام الي كنه الدائم . الله على الماء المزمهل . على عينيها يبرق ذكاء كأنها مطارح شعاع باطني . وصوتها البحيح يرجعني لخطفات علوية شبه نصف نائمة للوراء زمانا . زمن هذا كذا وذلك كيت ، الى اجمل الايام قاطبة ، أيام العدم .

حضر ة عميقة في صفائح حمام نادرا ما يهتف . أيام التعرف على الاشياء في عذريتها النقية ، ترجعني طفلا ممتلئا بالفراغ واللاتفكير الذي يساعد في نهبه القمر التام . آية الكرسي والطمأنينة تستجم على مناسر الطيور الجارحة .

الصفاء الذي يجعل المرء مركزا للدينا ، راسخ القلب يصحو على همسات الشمس وينام على سنة الله ورسوله .

حينما كانت تحكي رأيت بجعة بيضاء تنساب عاليا وترك علي سطح بيت هانئة كحكيم يتأمل حماقاته الشخصية . كانت تغني بالاحرى . نعم راحيل كانت تغني حينما رمى الصياد ذو التي شرت الاحمر شباكه في منتصف النهر ، فادرك كل السمك المكيدة وهرب منسابا في خبايا المستقبل ، في خبايا القاع بتنهيدات سريعة من الاكسوجين تبدو من أعلى كأن صفحة الماء تتثقبها رصاصات غدر وخيانة تاركة جرحا يلتئم كأثر بعد عين .

كانت محاضرة اب روف محتشدة بالتلاميذ ، من اللبخ البليد الذي كان يرسب حتى في امتحان الظل اهين كالماء ، الى النخيل الملكي الذي برهن شيئا تافها .. أن النخيل ايضا يكذب . كان وجهها يرمي بالغم بعيدا عني . يرميه بقسوة ، وكانت قطيرات العرق تنتح من ارنبة انفها الحاد وجبينها وأول عنقها الذهبي ، كانت تجعل وجهها يبدو مثل زير احمر جديد يدخل لأول مرة تجربة الماء .

وكانت حينما تضحك وهي تضرب بكفيها على ردفها ، ينسكب من عينيها الابيض والازرق ، تانا في بطينها العاطفي ، فكتوريا في بطينها العقلي ، والمقرن يتألق على وجهها الرقيق. فأمسح بإبهامي على خديها محاسبا لعدم هدر دموعها التي سحت على الارض . امسح كنحات شهير , أمسح كمعلم حنين يمسك

بمسطرينة ويملط التعميشة فتفوح رائحة التراب والروح والاسمنت والظمأ ، بعدها اتذوق شقاء عمري ماسحا باهامي ولساني متوخيا اقصى بؤرة في الذوق .

نشأت راحيل بالدمازين حيث كان والدها يعمل مهندسا بـــالخزان . تشـــبعت برؤية الحميز الريان . ولعتب تحت ظلال اشجار القولد مـــور الغزيـــرة . ورأت صخور بحر ازرق السوداء حداء الرصيرص . كانت تقطن بحي الموظفين اليانع في الخريف وغير الخريف ، وكان حوش منزلهم عبارة عن صريف من اشجار الحناء وهي كانت تقول :

" كنت متخيلة أنو الحناء الفي كرعين النسوان مزروعة برضو "

كانت تستيقظ قبل الشمس يوميا مجتازا فراندة النملي ، مجتازة الحـــوش حيـــث تصدر قدماها الشريفتان الحافيتان حفيفا بديعا مع تكسر الاوراق الجافة والثمـــار وقلوب الزهور ، حتى تبلغ اقصى شرق الحي الذي بناه الانجليز ، حيث توجـــد اجمل مقابر في السودان على الاطلاق . حياة خضراء . كانت تقول :

" المقابر الخضراء .. في حتة عالية ، ربوة تحتها شارع زلط ، من بعيد هناك يـقرل الجياشة بالمحروسات ماشين القيادة .. وكان فوق الشواهد المحا كتابتا المطر بقيف شجر عريان .. ترك فوقو طيور سودا وكانت القبور مغطية بالحشائش والـورود الصفراء ..وكنت أنا دائما بحب اشوف شروق الشمس من هناك وقدامك يـــا أهبل افندي ( تضحك وتتملص مني ) الخزان والروصيرص بقطاطيها ووديانهـــا ،

كنت بحس انو دا ملاذي الوحيد .. في الوادي داك .. في الخريـــــف داك .. في الصباح الحلو داك وعلي فكرة أن سميتو وادي فرعون لأنو اداني انطباع ما عارفة اعبر عنو الا بفرعون .. جنب السرايا البيضاء .. ما عارفه ليه المقابر ديك بالنسبة لي كانت اجمل مكان في الارض ..اجمل من الحلم والبيت "

وهنا كان الوقت قد ازف وثرثر مع كهف الطين الاســـود فقمــت وراحيــل وظهورنا مبلولة بالرطوبة الندية ، نطل على الشاطئ العجوز . حيث مرت امامنـا تشكيلات من طيور مبهمة حادة الاطراف تتجه جنوبا نحو السكون اللطيــف ، حيث غر فة نوم الطبيعة . وقبل أن نجرجر خطانا ميمين شطر النهر حيث ينتظـر الموت راحيل بالمترل بعد سبع ساعات ، ويتظرني كل شــئ . رفــع بروفسـير الغروب معصمه ليتأكد من أن محاضرة اب روف قد انتهت ويصحح بعجالة مــن امر ه اخطاء الهبوب الوحشي على صفحات المياه ، واخيرا يمهر انحــاء المكــان بامضاء الظلام ، فيبتسم بصورة طبيعية ، مفترا عن شفق ملتهب هو ليس بجميــل ، بقدر ما هو مؤلم ، ممض .

## لماذا أنا حزين الى الأبد

أنا حزين لأن الناس يرجمونك بالحجارة وأنت واقف ، فأذا صمدت و لم يرف لك جفن ، فأنهم لن يلبثوا يهرعون اليك ويقبلون الارض امام قدميك . متبتلين كأنك اله او نبي ، أن يا سيدنا علمنا الصمود امام الحجارة . أمـــا انـــا فلست بتماسك ، انا منهار نعم . اشعر بدماغي حبة قمح سحقتها القوة الفاكرة .حينما نلج الخبايا لا نكاد نعرف أين آلت مرامي العيـــون ، ربمـــا في ســـطوح الأشياء. كنت ابكي كإشاعة تقول بأنني كنت اضحك . ورقة أبدية تحـــترق . واه يا نفسي يا له من ختام رائع . واه يا حنظل الصبر . راحيل كانت تتعـــــرق بصفحة وجهها في صدري . انفاسها تلفح انفي . الدخان في الكمائن البعيـــــدة يرمي بطرحته على رؤوس اشجار الليمون . نور اخضر باهت . عصافير تحـط في خيوط العناكب . خريف ربيع صيف الشتاء . شتاء ربيع خريف الصيف . ربيـع ربيع ربيع الربيع. واه تتشتت المعاني الى يوم الدين ، عليقة لبهائم الصمت . أنا سالم صلاح سالم . صلاح . سالم . صلاح . سالم . صلاح ...ما هذا ؟ أنـــا لست سالم صلاح . لقد كنت مصورا ، والآن ..لا شئ بعد راحيل .

